

الباب الرابع

والآن نعيش مع بعض القصص التي تجلي لنا هذا المعنى



فإن للقصّة أثرًا عميقًا في النفوس؛ لما تحويه من عناصر التشويق، وجوانب الاعتبار والاتعاظ، وهي وسيلة يستخدمها الدعاة، والهداة، والمصلحون للوصول إلى قلوب الناس وعقولهم؛ كي يرتقوا بهم من الظلمات إلى النور، ويأخذوا بأيديهم إلى الطريق القويم، فيسلموا وجوههم لله عزّ وجلّ.

ولا ينتفع بهذا القصص إلا أصحاب القلوب التقيّة النقية وأصحاب الفطر والعقول السوية.. قال النبي: ﴿ لَقَدْ كُنَّا فِي فَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يونس: ١١١].

فمن خلال القصص تظهر السنن الربانية واضحة جلية حيث يجعل الله عزّ وجلّ النصر والتمكين للمؤمنين ويجعل الهلاك والعذاب والنكال للكافرين والمكذّبين كما قال رب العالمين: ﴿ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُقَدَاكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠].

فالقصص وسيلة عظيمة من وسائل تربية الأمة وتثبيتها على طريق الحق.

ومن أهداف القصص:

- تنبيه الإنسان من الغفلة والرقود، وإبعاده عن مهاوي الانحراف والسقوط.
- التحذير من أخطار البعد عن الاستقامة، والصالح والحق.
- تصويب مناهج الآداب والسلوك، والدفع إلى الحياة الإيجابية همة وعزيمة.
- تصحيح العقيدة، وغرس بذور الإيمان بالله ربًا واحدًا.

• تربية النفس، وتقويم السلوك، وغرس الشعور الفياض بالإيمان المتوقد
بمشاعر الود والخير.

• التذكير بأحداث الأمم الغابرة والأقوام البائدة، الذين تنكبوا عن صراط الهداية،
وهدي الأنبياء والمصلحين.

• بيان حسن عاقبة المؤمنين؛ الذين ثبتوا على الحق، وابتعدوا عن الباطل، وتابوا
توبة صادقة، وشكروا الله على نعمه؛ بأن استعملوها بما يرضي الله تعالى.

• بيان سوء عاقبة المكذبين؛ الذين أصرروا على كفرهم وأستحبوا العمى على الهدى،
وجحدوا نعم الله بأن استعملوها فيما يسخط الله عز وجل^(١).



الكلب والديك والحمار

قال مسروق:

كان رجل بالبادية له حمار وكلب وديك، وكان الديك يوقظهم للصلاة، والكلب يحرسهم، والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خيامهم.

فجاء الثعلب، فأخذ الديك، فحزنوا له، وكان الرجل صالحًا، فقال: عسى أن يكون خيرًا.

ثم جاء الذئب بعد ذلك، فخرق بطن الحمار فقتله، فقال الرجل: عسى أن يكون خيرًا.

ثم أصيب الكلب بعد ذلك، فقال: عسى أن يكون خيرًا.

ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا، فإذا قد سُبي مَنْ كان حولهم وبقوا سالمين، وإنما أخذوا أولئك بما كان عندهم من أصوات الكلاب والحمير والديكة، فكانت الخيرة في هلاك ما كان عندهم من ذلك، كما قدر الله سبحانه وتعالى، فمن عرف خفي لطف الله رضي بفعله^(١).



(١) «حياة الحيوان» للدميري (٣/٤١١).

قريباً صحت الأجراس بالعلل

ذكر أهل السير: أن رجلاً أصابه الشلل، فأقعد في بيته، ومرت عليه سنوات طوال من الملل واليأس والإحباط، وعجز الأطباء في علاجه، وبلغوا أهله وأبناءه، وفي ذات يوم نزلت عليه عقرب من سقف منزله، ولم يستطع أن يتحرك من مكانه، فأثت إلى رأسه وضربته برأسها ضربات ولدغته لدغات، فاهتز جسمه من أخص قدميه إلى مشاش رأسه، وإذا بالحياة تدب في أعضائه، وإذا بالبرء والشفاء يسير في أنحاء جسمه، ويتفرض الرجل ويعود نشيطاً، ثم يقف على قدميه، ثم يمشي في غرفته، ثم يفتح بابه، ويأتي أهله وأطفاله، فإذا الرجل واقفاً، فما كانوا يصدّقون، وكادوا من الدهول يُصعقون، فأخبرهم الخبر.

فسبحانه مقدر الأقدار، جعل علاج هذا الرجل في لدغ العقرب.



وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها

يُحكى أن ابن أبشاذ النحوي كان يوماً على سطح جامع مصر وهو يأكل شيئاً وعنده ناس، فحضرهم قطعاً فقدموا له لقمة فأخذها في فمه وغاب عنهم ثم عاد إليهم، فرموا له شيئاً آخر ففعل كذلك وتردد مراراً وهم يرمون له وهو يأخذه ويغيب، ثم يعود من فوره حتى عجبوا من ذلك القط، و علموا أن مثل هذا الطعام لا يأكله وحده لكثرة، فلما شكوا في أمره تبعوه فوجدوه يصعد إلى حائط في سطح الجامع، ثم ينزل إلى موضع بين خراب وفيه قط آخر أعمى وكل ما يأخذه من الطعام يحمله إلى ذلك القط ويضعه بين يديه وهو يأكله.

فعجبوا من تلك الحال، فقال ابن أبشاذ: إذا كان هذا حيوان أخرس قد سخر الله له هذا القط وهو يقوم بكفايته ولم يحرمه الرزق فكيف يضيع مثلي؟!!

رأى رجل عصفوراً صغيراً يحمل طعاماً في فمه ويصعد إلى نخلة عالية ثم يرجع ويأخذ طعاماً ويصعد به إلى تلك النخلة فصعد الرجل إلى بناية عالية ليرى ما يصنع ذلك العصفور فإذا به يرى العصفور قد وقف أمام حية عمياء ويصدر لها صوتاً فتفتح فمها فيضع لها الطعام في فمها فتحجب الرجل وقال: إذا كان الله عزَّ وجلَّ سخر عصفوراً لتلك الحية فكيف أحمل همَّ الرزق وأنا موحدٌ لله عزَّ وجلَّ.



لعله خير

كان هناك ملك من الملوك وكان له وزير صالح لا يحدث أمر إلا قال: لعله خير. فحدث أن قطع أصبع الملك فقال الوزير: لعله خير. فغضب الملك غضباً شديداً وأمر بحبسه فقال الوزير: لعله خير. وحدث أن خرج الملك في نزهة للصيد ومعه حاشيته. وكان الملك يطارد صيداً فأعياه الصيد وأخذ الملك يطارده حتى ابتعد عن حاشيته ولم يتمكن من صيده. وإذا به يدخل بلدة. وكان من عادات أهل هذه البلدة أن لهم يوماً يحتفلون فيه كل سنة وأول من يدخل عليهم البلد يذبحونه قرباناً لأهنتهم، فكان الداخل هو الملك فقبضوا عليه ليذبحوه فتوسل إليهم وأخبرهم أنه ملك فلم يستمعوا لكلامه فلما أرادوا ذبحه وجدوا أن أصبعه مقطوع فتركوه؛ لأن من طقوسهم أن من يقدم للآلهة لا بد أن يكون كامل الأعضاء. فعاد إلى حاشيته الذين كانوا يبحثون عنه. فلما عاد إلى قصره أخرج الوزير من السجن وقص عليه ما حدث وقال: هذا خير لي. قطع أصبعي ولكن كيف يكون سجنك خيراً لك. فقال الوزير: يا مولانا السجن كان خيراً لي لأنني لا أفارقك في أي مكان ولو كنت معك في الصيد، لذبحوني قرباناً للآلهة لأنني كامل الأعضاء.



عد التّ السّماء

كان نبي من الأنبياء يجلس على رأس جبل وفي أسفل الجبل عين ماء فجاء فارس على جواد فنزل فشرب من البئر ثم انصرف، ثم جاء بعده رجل فشرب فلما خرج من البئر إذا به يجد كيس نقود - وقع من الفارس - فأخذه ثم انصرف. والنبي ينظر، ثم جاء شيخ كبير فنزل فشرب ثم خرج وجلس على حافة البئر. فعاد الفارس يبحث عن نقوده، فوجد الشيخ عند البئر فسأله عن المال فقال: لم أجد شيئاً، فقال له الفارس: هات المال وإلا ضربت عنقك، فقال الشيخ: لم أخذ شيئاً فقتله الفارس بسيفه ثم انصرف فتعجب النبي وقال: يا رب يقتل البريء وينجو الآخذ فأوحى الله إليه.. أني فعلت ذلك لحكمة: أما الرجل الذي قُتل فإنه قتل أبا الفارس فاقتصمت منه، وأما الذي أخذ المال فإن أبا الفارس قد أخذ مال أبيه فيما مضى فرددت المال إلى ابنه.



الطائر وأصحاب السفينة

روي أن امرأة دخلت على داود عليه السلام فقالت: يا نبي الله، ربك ظالم أم عادل؟

فقال داود عليه السلام: ويحك يا امرأة، هو العدل الذي لا يجور، ثم قال لها: ما قصتك؟

قالت: أنا أرملة عندي ثلاث بنات، أقوم عليهن من غزل يدي، فلما شددت غزلي في خرقة حمراء، وأردت أن أذهب إلى السوق لأبيعه، وأبلغ به أطفالي، فإذا أنا بطائر قد انقضَّ عليَّ وأخذ الخرقة والغزل وذهب، وبقيت حزينة لا أملك شيئاً حتى أبلغ به أطفالي.

فبينما المرأة مع داود عليه السلام في الكلام، وإذا بالباب يُطرق على داود، فأذن بالدخول، وإذا بعشرة من التجار كل واحد بيده مائة دينار.

فقالوا: يا نبي الله أعطها لمستحقها.

فقال لهم داود عليه السلام: ما كان سبب حملكم هذا المال؟

قالوا: يا نبي الله، كنا في مركب فهاجت علينا الرياح وأشرفنا على الغرق فإذا بطائر قد ألقى علينا خرقة حمراء وفيها غزل، فسدنا به عيب المركب، فهانت علينا الرياح، وانسدَّ العيب ونذرنا لله أن يتصدق كل واحد منا ببيعة دينار، وهذا المال بين يديك فتصدق به علي من أردت.

فالتفت داود عليه السلام إلى المرأة، وقال لها: ربُّ يتجرلك في البر والبحر وتجعليه ظالماً، وأعطها الألف دينار، وقال: أنفقيها على أطفالك ^(١).

(١) «أنيس الصالحين».

قصة الحية والسكران

عن يوسف بن الحسين يقول: كنت مع ذي النون المصري على شاطئ غدير فنظرت إلى عقرب أعظم ما يكون على شط الغدير واقفة، فإذا بضفدع قد خرجت من الغدير، فركبتها العقرب، فجعلت الضفدع تسبح حتى عبرت، فقال ذو النون: إن لهذا العقرب لشأناً فامض بنا، فجعلنا نقفو أثرها؛ فإذا رجل نائم سكران، وإذا حية قد جاءت فصعدت من ناحية سُرته إلى صدره وهي تطلب أذنه، فاستحكمت العقرب من الحية فضربتها، فانقلبت وانفسخت، ورجعت العقرب إلى الغدير، فجاءت الضفدع فركبتها فعبرت، فحرك ذو النون الرجل النائم، ففتح عينيه، فقال: يا فتى! انظر مما نجاك الله!، هذه العقرب جاءت فقتلت هذه الحية التي أردتكَ، ثم أنشأ ذو النون يقول:

يا غافلاً والجليل يحرسه من كل سوء يدب في الظلم
كيف تنام العيون عن ملك تأتيه منه فوائد النعم

فنهض الشاب وقال: إلهي! هذا فعلك بمن عصاك!، فكيف رفقتك بمن يطيعك؟، ثم ولى، فقلت: إلى أين؟ قال: إلى طاعة الله.



ويرزقه من حيث لا يحتسب

دخل أحد السلف أحد المزارع وكان جائعاً متعباً فشده نفسه لأن يأكل وبدأت المعدة تفرقر، فأطلق عينيه في الأشجار فرأى تفاحة، فمد يده إليها ثم أكل نصفها بحفظ الله ورعايته ثم شرب من ماء النهر بجانب المزرعة، لكن انتبه بعد ذلك من غفلته بسبب الجوع وقال لنفسه: ويحك كيف تأكل من ثمار غيرك دون استئذان وأقسم ألا يرحل حتى يدرك صاحب المزرعة يطلب منه أن يحلل له ما أكل من هذه التفاحة فبحث حتى وجد داره فطرق عليه الباب فلما خرج صاحب المزرعة استفسر عن ما يريد، قال صاحبنا: دخلت بستانك الذي بجوار النهر وأخذت هذه التفاحة وأكلت نصفها ثم تذكرت أنها ليست لي وأريد منك أن تعذرني في أكلها وأن تسامحني عن هذا الخطأ فقال الرجل: لا أسامحك، ولا أسمح لك أبداً إلا بشرط واحد، قال صاحبنا: وهو (ثابت ابن النعمان): وما هو هذا الشرط؟ قال صاحب المزرعة: أن تزوج ابنتي، قال ثابت: أتزوجها، قال الرجل: ولكن انتبه أن ابنتي عمياء لا تبصر، خرساء لا تتكلم، وصماء لا تسمع، وبدأ ثابت بن النعمان يفكر - أنعم بها من ورطة - ماذا يفعل؟ ثم علم أن الإبتلاء بهذه المرأة وشأنها وتربيتهما وخدماتها خير من أن يأكل الصديد في جهنم جزاء ما أكله من التفاحة وما الأيام وما الدنيا إلا أياماً معدودات، فقبل الزواج على مضمض وهو يحتسب الأجر والثواب من الله رب العالمين.

وجاء يوم الزفاف وقد غلب الهم على صاحبنا كيف أدخل على امرأة لا تتكلم ولا تبصر ولا تسمع فاضطرب حاله وتمنى أن لو تبتلعه الأرض قبل هذه الحادثة ولكنه توكل على الله وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون، ودخل عليها يوم الزفاف فإذا بهذه المرأة تقوم إليه وتقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فلما نظر إليها تذكر ما يتخيله عن الحور العين في الجنة. قال بعد صمت: ما هذا؟ إنها تتكلم وتسمع

وتبصر فأخبرها بما قال عنها أبوها قالت: صدق أبي ولم يكذب، قال: اصدقيني الخبر، قالت: أبي قال عني إنني خرساء لأنني لم أتكلم بكلمة حرام، ولا تكلمت مع رجل لا يحل لي، وإنني صماء لأنني ما جلست في مجلس فيه غيبة ونميمة ولغو، وإنني عمياء لأنني لم أنظر إلى أي رجل لا يحل لي.

فانظروا اعتبر بحال هذا الرجل التقى وهذه المرأة التقية وكيف جمع الله بينهما.



سمكة تنقذ رجلاً

قال علي بن حرب:

أردت أن أسافر من بلدي الموصل إلى بلدة أخرى لشراء بعض البضاعة، وكانت هناك سفن تسير في نهر دجلة من الموصل إلى البلدة الأخرى تنقل الركاب والبضاعة بالأجر، فركبت إحدى هذه السفن، وسرنا في نهر دجلة متجهين نحو تلك البلدة.

وكان في السفينة بعض البضاعة، ونفر من الرجال لا يتجاوز الخمسة، وكان النهار صحواً والجو جميلاً والنهر هادئاً والرياح يحدو ويغني غناءً جميلاً والسفينة تسير على صفحة الماء سيراً هادئاً، حتى أخذت أكثرنا غفوة من النوم، وفجأة رأيت سمكة كبيرة تقفز من النهر داخل السفينة، فهجمت عليها، وأمسكت بها قبل أن تعود إلى النهر مرة أخرى.

وانتبه الرجال من غفوتهم بسبب الضجة التي حصلت وعندما رأوا السمكة، قال أحدهم: هذه السمكة أرسلها الله تعالى إلينا، لماذا لا نزل بها إلى الشاطئ فنشويها ونأكلها وهي كبيرة تكفينا جميعاً، فأعجبنا رأيها، ووافق الريان على ذلك فمال بنا إلى الشاطئ ونزلنا، واتجهنا إلى دغل^(١) من الشجر لنجمع الحطب ونشوي السمكة.

وما أن دخلنا الدغل فوجدنا بمنظر اقشعرت منه جلودنا، فوجدنا برجل مذبوح وإلى جانبه سكين حادة على الأرض، ورجل آخر مكتوف بحبل قوي وحول فمه منديل يمنعه من الكلام والصراخ، فاندھشنا من هذا المنظر فمن قتل القتيل ما دام الرجل مكتوفاً؟

أسرعنا أولاً فحللنا رباط الرجل ورفعنا المنديل عن فمه، وكان في أقصى درجات الخوف واليأس، وعندما تكلم قال: أرجوكم أن تعطوني قليلاً من الماء أشربه أولاً فسقيناها.

(١) الدغل: الشجر الكثير.

وبعد أن هداً قليلاً، قال: كنت أنا وهذا الرجل القليل في القافلة التي تسير من الموصل إلى بغداد والظاهر أن القليل لاحظ أن معي ماأً كثيراً، فصار يتودد إليّ، ويقرب مني، ولا يفارقني إلا قليلاً، حتى نزلت القافلة في هذا المكان لنستريح قليلاً، وفي آخر الليل استأنفت القافلة السير، وكنت نائماً فلم أشعر بها، وبعد أن سارت القافلة، استغل هذا الرجل نومي، وربطني بالحبل كما رأيتم ووضع حول فمي منديلاً لكي لا أصرخ، ثم رماني إلى الأرض، وجلس فوقني يريد أن يذبحني، وهو يقول: إن تركتك حياً فإنك ستلاحقني وتفضحني؛ لذلك لا بد من ذبحك.

وكان معه سكين حادة يضعها في وسطه، وهي هذه السكين التي ترونها على الأرض وأراد سحب السكين من وسطه ليذبحني بها، لكنها علقبت بحزامه، فصار يعالجها ثم نثرها بقوة، وكان حدها إلى أعلى، فخرجت بقوة، واصطدمت بعنقه وقطعت الجلد واللحم والشريان، فتدفق الدم منه، وخارت قواه، ثم سقط ميتاً، وحتى بعد موته كنت موقناً بالموت؛ لأن هذا المكان منقطع لا يأتيه أحد إلا قليلاً، فمن يفكني ومن ينقذني؟

وصرت أدعو الله سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ أن يرسل من ينقذني مما أنا فيه، فأنا مظلوم ودعاء المظلوم لا يُرد، وإذا بكم تأتون وتنقذوني مما أنا فيه، فما الذي جاء بكم في هذه الساعة إلى هذا المكان المنقطع؟

فقالوا له: الذي جاء بنا هو هذه السمكة، وحكوا له كيف قفزت من الماء إلى السفينة فأتوا بها إلى هذا المكان؛ لكي يشورها ويأكلوها.

فتعجب من ذلك، وقال: إن الله سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ قد أرسل هذه السمكة إليكم؛ لكي يجعلكم تأتون إلى هذا المكان، وتخلصوني مما أنا فيه، والآن إنني مُتَّعِبٌ جداً أرجوكم أن تأخذوني إلى أقرب بلدة.

فصرفوا النظر عن شي السمكة وأكلها، وأخذوا الرجل بعدما حمل معه المال الذي سلبه الرجل الآخر منه وعادوا به إلى السفينة وما أن وصلوا السفينة، حتى قفزت السمكة إلى الماء، وعادت إلى النهر مرة أخرى، فكاننا قد أرسلها الله سبحانه وتعالى حقاً؛ لكي تكون سبيلاً في إنقاذ الرجل المظلوم.

وكنّا إذا أراد الله شيئاً هياً أسبابه^(١).



(١) «طبقات الأولياء» (١٨٠، ١٨١).

من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه

قال القاضي أبو بكر محمد بن عبد الباقي بن محمد البزار الأنصاري المتوفى سنة

[٥٣٥هـ] ببغداد:

كنت مجاوراً بمكة حرسها الله تعالى، فأصابني يوماً من الأيام جوع شديد لم أجد شيئاً أدفع به عني الجوع، فوجدت كيساً من أبريسم مشدوداً بشرابة من إبريسم أيضاً فأخذته وجمت به إلى بيتي، فحللته فوجدت فيه عقداً من لؤلؤ لم أر مثله.

فخرجت فإذا بشيخ ينادي عليه، ومعه خرقة فيها خمسمائة دينار، وهو يقول: هذا لمن يرد علينا الكيس الذي فيه اللؤلؤ، فقلت: أنا محتاج، وأنا جائع، فأخذ هذا الذهب فأنفَع به، وأرد عليه الكيس.

فقلت له: تعال إلي، فأخذته وجمت به إلى بيتي، فأعطاني علامة الكيس، وعلامة الشربة، وعلامة اللؤلؤ وعدده، والخط الذي هو مشدود به، فأخرجته ودفعته إليه، فسلم إلي الخمسمائة دينار، فما أخذتها، وقلت: يجب علي أن أعيده إليك، ولا آخذ له جزاءً، فقال لي: لا بد أن تأخذ وألح علي كثيراً، فلم أقبل ذلك منه فتركتني ومضى.

وأما ما كان مني، فإني خرجت من مكة وركبت البحر، فانكسر المركب وغرق الناس، وهلكت أموالهم، وسلمت أنا على قطعة من المركب، فبقيت مدة في البحر لا أدري أين أذهب؟ فوصلت إلى جزيرة فيها قوم، فقعدت في بعض المساجد، فسمعونني أقراً، فلم يبق في تلك الجزيرة أحد إلا جاء إلي وقال: علمني القرآن، فحصل لي من أولئك القوم شيء كثير من المال.

ثم إنني رأيت في ذلك المسجد أوراقاً من مصحف، فأخذتها وقرأت فيها، فقالوا لي: تحسن تكتب؟ فقلت: نعم، فقالوا: علمنا الخط، فجاءوا بأولادهم من الصبيان

والشباب، فكنت أعلمهم، فحصل لي أيضًا من ذلك شيء كثير، فقالوا لي بعد ذلك: عندنا صبية يتيمة، ولها شيء من الدنيا، نريد أن نتزوج بها، فامتعت، فقالوا: لا بد، وألزموني فأجبتهم إلى ذلك.

فلما زفوها إليّ مددت عيني أنظر إليها، فوجدت ذلك العقد بعينه معلقًا في عنقها، فما كان لي حينئذٍ شغل إلا النظر إليه، فقالوا: يا شيخ كسرت قلب هذه اليتيمة من نظرك إلى هذا العقد، ولم تنظر إليها، فقصصت عليهم قصة العقد، فصاحوا وصرخوا بالتهليل والتكبير، حتى بلغ إلى جميع أهل الجزيرة، فقلت: ما بكم؟ فقالوا: ذلك الشيخ الذي أخذ منك العقد أبو هذه الصبية، وكان يقول: ما وجدت في الدنيا مسلمًا أفضل من هذا الذي رد عليّ هذا العقد.

وكان يدعو ويقول: اللهم اجمع بيني وبينه حتى أزوجه بابنتي، والآن قد حصلت، فبقيت معها مدة، ورزقت منها بولدين.

ثم إنها ماتت فورثت العقد أنا وولداي، ثم مات الولدان، فحصل العقد لي، فبعته بمائة ألف دينار، وهذا المال الذي ترونه معي من بقايا ذلك المال.

إذنه درس عظيم، إنه من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.



ثمن البقرة

باع بقرته التي لا يمتلك سواها بثلاثة آلاف ليرة، وقبض الثمن، ووضعها في كيس، ثم دسه في وسطه.. وتوجه إلى منزله وعليه علامات الحزن والحسرة، وعلمت زوجته ببيع البقرة التي يمتلكونها، فأخذت تُعزّيه عن فقدها وتُمنّيه بأن الله سيعوّض عليهم بأحسن منها.

وجاء الليل، وأوى الناس إلى منازلهم من شدة البرد، وجلس الرجل «أبو حسن» وزوجه في غرفتهما المتواضعة، وبينما كانت أم حسن تُعَلّل طفلها بالرضاع الكاذب؛ لتحمله على الفطام، إذا بطرقات خفيفة على باب الدار، وفتح أبو حسن الباب، فإذا برجل يرتجف من شدة البرد والمطر، يقول: غريب ألاجأني البرد إلى قريبتكم، ولا أعرف بها أحداً، وأنا في طريقي إلى مدينة حمص.

فقال أبو حسن: ماذا نستطيع أن نقدم لك، ونحن أسرة فقيرة، وبيتنا ضيق، لا يُساعدنا على استقبال الضيوف.

فقال الغريب: أرجوكم البرد شديد اسمحوا لي فقط بالمبيت عندكم حتى الصباح، ولا أريد أن أكلفكم أية نفقة.

فقال أبو حسن: ليس لدينا سوى هذه الغرفة أنام بها أنا وزوجي وطفلنا الصغير؛ فاعذرونا لعدم وجود مكان لك.

فقال الغريب: أنام في هذه الزاوية، وتنامون أنتم في الجانب الآخر، ويمكنكم أن تضعوا بيننا حاجزاً، وأجركم على الله.

رَقَّ قلب أم حسن لهذا الغريب، وقالت: يُعيننا الله يا أبا الحسن، ولعله يرد عنا المصائب بحسنة هذا الضيف الغريب..

ورحبا بالضيف، ثم قام كلُّ إلى فراشه بعد أن أعدوا للضيف ما وجدوا من غطاء وفراش، وما لبث أبو حسن وزوجه أن غطّوا في نومهم، فقد أجهدهم التعب والسهر، كان الغريب يرقب أهل الدار حتى تيقن أنهم استغرقوا في نومهم، وإلى جانبهم طفلهم الرضيع، فقام الغريب من فراشه على أطراف أصابعه، وراح يتحسّس موضع الطفل، فحمله وخرج به من الغرفة، ووضعته بعيدا في فناء الدار.. وعاد إلى فراشه، وتظاهر بالنوم.

وأحسّ الطفل بلسع البرد، فراح يبكي، فاستيقظت أم حسن على بكائه، وتحسست فراش الطفل، فلم تجده فيه، فأيقظت زوجها، وقالت له: لقد حبا الطفل إلى فناء الدار، قم بنا نعيده إلى فراشه قبل أن يضره البرد.

فقاما حتى وصلا إلى الطفل، وانحنت عليه أمه، وضمتته إلى صدرها وهي تقول: لهفي عليك يا ولدي ما الذي أخرجك من فراشك في هذا البرد الشديد؟

وما كاد أبو حسن وزوجه يتجهان بطفلها نحو الغرفة حتى خرّ السقف، وانهدمت الدار، فوقفا واجمين، وسمع الجيران فرقة الخشب، وسقوط السقف، فجاؤوا ليسهموا بالإنقاذ، فقال أبو الحسن: يا ناس: عندنا ضيف داخل الدار، يجب أن ننقذه قبل كل شيء.

ودخل أبو حسن بصحبة بعض الجيران، وسعّوا إلى موضع الضيف، فلم يجدوه، فأخذوا يرفعون الأنقاض حتى وصلوا إلى سرير أبي حسن، وإذا بالضيف ميتا تحت الأنقاض ويده كيس النقود، وقد أخرجه من تحت الوسادة التي ينام عليها صاحب الدار.

كان هذا اللص قد حضر السوق، ورأى أبا حسن وهو يبيع البقرة، ويضع ثمنها في الكيس، فقرّر سرقة الثمن، ورسم الخطة لاختلاس المال، وتبع أثر صاحب البقرة من

بعيد حتى رآه يدخل الدار، فلما أذنوا له بالمبيت حمل الطفل ليلاً إلى خارج الدار، وتركه يبكي ليخرج أهله إليه، وعندما يخرج يتسنى له أخذ الكيس فيه ثمن البقرة، وقد رأى أبا حسن يدسه تحت الوسادة.

كان اللص يضع الخطة، وكان الله له بالمرصاد، فما كاد يُنفذ خطته حتى يأذن الله أن يتعجّل بالعقاب لهذا الماكر الشرير، مُنكر الجميل، وأن يُنقذ الطفل وأهله من سوء المصير، فأوحى إلى الطبيعة، فثارت ثورتها، وسقط السقف على اللص، فقضى نحبه تحت الأتقاض، فإن غفل الإنسان لا تغفل يدُ الله، وانصرف الناس، وهم يقولون: هذا مثل الجزاء السريع للذنب الفظيع.

وَحَقًّا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ^(١) _(٢).



(١) مقتبس من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [غث: ٣٥].
 (٢) «أنيس الصالحين» ص (٢٣، ٢٤).

أردت عمراً وأراد الله خارجته

كان تاجراً متوسط الثراء، وكان يعمل بشراء الأبقار من العراق، أو من إيران، ثم ينتقل بها هو ورجاله مرحلة مرحلة حتى يصل إلى سورية ولبنان، وقد يصل إلى مصر؛ لبيع ما لديه من الأبقار، ثم يشتري بئسها أقمشة ومصنوعات أخرى، ويعود بها إلى العراق.

وكان الرجل مسلماً حقاً، قوَّاماً، صوَّاماً، منفقاً على الفقراء، قائماً بواجباته نحو ربه ونحو الناس، ورعاً تقياً نقيّاً، ماله ليس له وحده، بل للمحتاجين من أقرائه، وأهل بيته، ولكل طالب محتاج.

وفي إحدى سفرائه بتجارته، وكان ذلك قبل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)، هطل ثلج كثير، فسد الطريق، وقتل الأعشاب فماتت أبقاره عدا أربعة منها، فصرف رجاله، وأخذ ينتقل بها من مكان إلى آخر، وكان في نيته أن يصل إلى حلب الشهباء؛ ليؤدي ما عليه من ديون هناك حسب طاقته، ويطلب تأجيل ما بقي عليه منها إلى العام القادم؛ لأن تجارته في هذا العام لم تريح، وإن مع العسر يسراً.

وفي مساء ذات يوم وصل إلى قرية صغيرة في طريقه من الموصل الحلباء إلى حلب الشهباء، فطرق باب أحد بيوتها، فلما خرج إليه رب الدار، أخبره بأنه ضيف الله، وأنه يريد أن يبيت ليلته في داره، فإذا جاء الصباح سافر إلى قرية أخرى.

ولم تكن حينذاك فنادق يأوي إليها المسافرون، ولم تكن يومئذ مطاعم يتناول الغرباء فيها طعامهم.. لقد كان الغريب، أو المسافر يطرق أي دار من دور المكان الذي يصل إليه، ثم يحل ضيفاً بين ظهرائه، ينام كما ينامون، ويتناول من طعامهم دون أجر أو مقابل..

ورحب صاحب الدار بضيفه، وأدخل أبقاره إلى صحن الدار، وقدم الطعام للضيف والعلف للأبقار.

كان صاحب البيت معدماً، وكان قد أصابه ما أصاب الناس من هطول الثلج بكثرة ولمدة طويلة، فماتت مواشيه وتضرر زرعه.

وكان متزوجاً وله ولد واحد في العقد الثاني من عمره.

وكان في داره غرفتان: غرفة يأوي إليها هو وزوجه، وغرفة يأوي إليها ولده.

واجتمعت العائلة حول الضيف الجديد، وابتدأ السمر شهياً طلياً، عرف المضيف من خلاله أن ضيفه يحمل مبلغاً من المال..

وفي المزيغ الثاني من الليل، أوى المضيف مع زوجته إلى غرفتهما، وأوى الضيف إلى غرفة ولد المضيف، فنام الولد على فراشه في الزاوية اليمنى من الغرفة، وأوى الضيف إلى فراشه في الزاوية اليسرى من الغرفة.

وبعد أن سأل المضيف ضيفه عما إذا كان يحتاج إلى شيء ما، واطمأن إلى راحته، وتأكد حتى من وجود الماء لديه، غادر إلى غرفته لينام هو أيضاً.

وفي غرفته همست له زوجته: يا فلان! إلى متى تبقى في عوز شديد؟ هذا الضيف غني، ونحن بأشد الحاجة إلى ماله وأبقاره.

إننا مُقبلون على مجاعة، لا يستطيع الأغنياء أن يتغلبوا عليها إلا بمشقة بالغة، وسنموت نحن بدون ريب، إننا الآن نأكل يوماً ونجوع أياماً، فكيف بنا إذا حلت بالقرية المجاعة المرتقبة ولا مال عندنا ولا طعام؟

إن الفرصة سانحة اليوم، ولن تعود مرة أخرى في يوم من الأيام! هلم إلى الضيف فاسلبه ماله، وخذ أبقاره، حتى تُبقي على حياتنا وحياة ولدنا الوحيد.

وقال لها الرجل: كيف وهو ضيفنا؟ كيف أسلبه ماله وأبقاره؟ كيف يسمح لنا بسلبه؟!

قالت زوجته: اقتله، ثم نرميه في حفرة قريبة في بطن هذا الوادي ومن يعرف بخبره؟ من؟!!

وتردد الرجل، وألحت المرأة، وكان الشيطان ثالثهما، فزين للرجل قول امرأته، وألح هو أيضًا على الإقدام على قتل الضيف.. ولكي تقطع المرأة على زوجها داء تردده، ولكي يقطع عليه الشيطان، قالت المرأة لزوجها: إن ما تفعله ضروري لإنقاذنا من الموت الأكيد، والضرورات تبيح المحرمات!..

واقنع الرجل أخيرًا، وعزم على قتل الضيف وسلب ما لديه من مال ومتاع. كان الوقت في الثلث الأخير من الليل، وكان كل شيء هادئًا ساكنًا، وكانت الأنوار مطفأة، ولم تكن أنوار المنزل في حبه غير سراج يوقد بالزيت.

وقصد الرجل خنجره، وشحذه، ثم يمم شطر غرفة الضيف وابنه ومن ورائه زوجه تشجعه.

ومشى رويدًا رويدًا، على رؤوس أصابع رجليه، واتجه شطر الزاوية اليسرى من الغرفة حيث يرقد الضيف، وتحسس جسمه حتى تلمس رقبته، ثم ذبحه، كما يذبح الشاة. وجاء إلى الرجل زوجه، وتعاونتا على سحب الجثة الهامدة إلى خارج الغرفة حيث اكتشفا هناك أنها ذبحا ابنتها الوحيد.

شهق الرجل شهقة عظيمة، وشهقت المرأة، فسقطا مغشياً عليهما، وعلى صوت الجلبة استيقظ الضيف، واستيقظ الجيران، ليجدا ابن الرجل قتيلاً، وليجدوا أمه وأباه مغشياً عليهما راقدين إلى جانب الجثة الهامدة على الأرض.

وسارع الضيف وسارع الجيران إلى الرجل وامرأته بالماء البارد يرشونه على وجهيهما، فلما أفاقا أخذوا يبكيان بكاءً مرّاً، وطلبوا إلى الجيران إبلاغ الحادث إلى الشرطة، فجاءت على عجل وألقت القبض على الجانيين.

ما الذي حدث في غرفة نوم الضيف وابن المضيف؟

لقد قام الابن إلى فراش الضيف بعد أن غادر أباه الغرفة، وأخذ الرجلان يتجاذبان أطراف الحديث، وكان الحديث ذا شجون، فطال أمده، حتى نام الولد على فراش الضيف بعد أن غلبه النعاس.

ولم يشأ الضيف أن يوقظ ابن مضيفه، فترك فراشه له بعد أن أحكم عليه الغطاء، ثم أوى إلى فراش ابن المضيف.

وحين قدم المضيف إلى غرفة الضيف وابنه، كان متأكداً من موضع فراش كل واحد منهما، فذبح ابنه وهو يريد الضيف، فكان كالخارجي الذي أراد اغتيال عمرو بن العاص في عمارة الفجر، فاغتال بدله خارجة بن حذافة، فلما علم بالخبر، هتف من صميم قلبه: «أردت عمراً وأراد الله خارجة».

ودفن الجيران الولد القتيل، واستقر والداه في السجن^(١).



فخرج الله

القصة الأولى -

روي أن حاتم الأصم قال لأولاده: إني أريد الحج فبكوا وقالوا: إلى من تكلنا؟^(١) وكان له بنت فقالت: دعوه يذهب فليس برازق فخرج فباتوا جوعاً فجعلوا يويخون تلك البنت، فقالت: اللهم لا تحجلني بينهم، فمر بهم أمير البلد فقال لبعض أصحابه: اطلب لي ماء فناوله أهل حاتم كوزاً جديداً فيه ماء بارد فشرب فقال: دار من هذه؟ فقالوا: دار حاتم الأصم، فرمى فيها منطقة من ذهب، وقال: من أحبني وافقني فرمى العسكر ما معهم من المال في هذا الإناء فجعلت البنت تبكي فقالت أمها: ما يبكيك وقد وسع الله علينا؟! فقالت: لأن مخلوقاً نظر إلينا فاغتنبنا، فكيف لو نظر الخالق إلينا؟.

القصة الثانية -

قال ابن عباد الصيرفي البغدادي: بينما أنا نائم إذ قيل لي في المنام: يا عباد قم فأعث الملهوف، فقلت: وأين هو؟ فقيل لي: اركب دابتك فهو حيثما وقفت. قال: فانتبهت من نومي وركبت دابتي وجعلت أتحلل أزقة بغداد حتى انتهيت إلى مسجد فوقفت الدابة ونزلت عنها ودخلت المسجد فإذا برجل مستقبل القبلة فسلمت عليه وقلت: ما قضيتك؟ قال: إني رجل ذو عيال ولم يكن عندهم الليلة شيء فجلست هاهنا، وطلبت من الله الفرج، قال: فأعطته مائة دينار وقلت له: أنا ابن عباد الصيرفي فإذا احتجت إلى شيء فأتني فقال: سبحان الله، أترك الذي أقامك من فراشك وأتى بك إلي في ظلمة الليل وأذهب إلى غيره. فودعته وانصرفت^(٢).

(١) تكلنا: تركزنا.

(٢) «مائة قصة وقصة».

الكلب والرغيف

عن ابن شداد قال:

رأيت رجلاً له كلب يقربه ويغطيه بديباج كان عليه، فسألته عن السبب، فقال: كان لي رفيق يعاشرني فخرجنا في سفر، وكان في وسطي هميان فيه جملة دنانير، ومعني متاع كثير، فنزلنا في موضع، فعمد إليّ فأوثقني ورمى بي في وادٍ، وأخذ ما كان معني ومضى، وقعد هذا الكلب معني، ثم تركني ومضى، فما كان بأسرع من أن وافاني ومعه رغيف، فطرحه بين يدي، فأكلته ولم أزل أحبو إلى موضع فيه ماء، فشربت منه، ولم يزل الكلب معني باقي ليلتي.

ثم نمت ففقدته، فما كان بأسرع أن وافاني ومعه رغيف فأكلته، فلما كان في اليوم الثالث غاب عني، فقلت: يمضي ويحيثني بالرغيف، فجاء ومعه الرغيف، فرمى به، فلم أستتم أكله إلا وابني يبكي فوق رأسي، وقال: ما تصنع هاهنا، وما قصتك؟ ونزل وحلّ كتافي، وأخرجني.

فقلت له: من أين علمت بمكاني؟ ومن ذلك عليّ؟ فقال: كان الكلب يأتينا في كل يوم فنطرح له الرغيف على اسمه، فلا يأكله وقد كان معك، فأنكرنا رجوعه ولست معه، وكان يحمل الرغيف بضمه ولا يذوقه، ويغدو فأنكرنا أمره، فاتبعته حتى وقفت عليك، فهذا خبري وخبر الكلب^(١).



(١) «الأذياء» ص [٢٩٨].

ذكاء الطير أفر أجل أفعى؟!!

بنى أحد الطيور عشاً له في أعالي جامع أيا صوفيا في استانبول، وبينما كان يهيمُ بالدخول إلى عشه لإطعام صغاره، شاهد حية كبيرة تتسلل إلى العش، فسارع بالمغادرة فوراً، وعاد بعد دقيقة ليحوم حول العش. ولما همت الأفعى بالتهامه فاغرة فاهها، إذا بها تهوي على الأرض!

وأسرع الذين كانوا على بينة من الأمر يراقبون هذا الحدث عن كثب ليعرفوا جلية الأمر، فوجدوا أن العصفور كان قد حمل نحلة في منقاره ورماها في فم الأفعى، وبلسعة واحدة من النحلة قضت على الأفعى^(١)!



(١) «غرائب من العالم» (٤ / ٧٤).

مع لقمان وابنه

وعن سعيد بن المسيب قال: قال لقمان لابنه: يا بني: لا ينزلن بك أمر رضيته أو كرهته، إلا جعلت في الضمير أن ذلك خير لك. قال: أما هذه فلا أقدر أن أعطيها دون أن أعلم ما قلت أنه كما قلت. قال: يا بني فإن الله قد بعث نبياً هلم حتى نأتيه، فعنده بيان ما قلت لك. قال: اذهب بنا إليه، فخرج على حمار وابنه على حمار، وتزودا ما يصلحهما، ثم سارا أياً ما وليالي، حتى تلتقهما مفازة^(١)، فأخذوا أهبتها ودخلاها، فسارا ما شاء الله أن يسيرا، حتى تعالی النهار واشتد الحر ونفد الماء والزاد، فاستبطا حماريهما، فنزلا يمشيان، فبينما هما كذلك إذ نظر لقمان أمامه، فإذا هو بسواد ودخان، فقال في نفسه: السواد شجر والدخان عمران وناس. فبينما هما كذلك يشهدان، إذ وطئ ابن لقمان على عظم على الطريق، فدخل في باطن قدميه حتى ظهر من أعلاها، فخر مغشياً عليه، فحانت من لقمان التفاتة، فإذا هو بابنه صريع، فوثب إليه فضمه إلى صدره، واستخرج العظم بأسنانه، وشق عمامة كانت عليه فعصب رجله، ثم نظر إلى وجه ابنه فذرفت عيناه، فقطرت قطرة من دموعه على خد الغلام فانتبه لها.

فنظر إلى أبيه يبكي فقال: يا أبت، أنت تبكي وأنت تقول: هذا خير لي، فكيف ذلك وأنت تبكي؟! وقد نفد الطعام والشراب وبقيت أنا وأنت في هذا المكان. قال: أما بكائي يا بني، فوددت أني افتديتك بجميع حظي من الدنيا، ولكني والد ومني رقة الوالد. وأما قولك: كيف يكون هذا خيراً لي؟ ففعل ما صرف عنك أعظم مما ابتليت به، ولعل ما ابتليت به أيسر مما صرف عنك، فبينما هو يحاوره، إذ نظر لقمان أمامه، فلم ير الدخان والسواد، فقال في نفسه: لم أر شيئاً، ثم قال: قد رأيت، ولكن لعله أن يكون قد أحدث ربي بما رأيت شيئاً، فبينما هو يتفكر في ذلك، إذ نظر فإذا هو بشخص قد أقبل على فرس

(١) المفازة: هي الصحراء سميت بذلك تهاوؤاً.

أبلى، عليه ثياب بيض، يمسح الهواء مسحاً، فلم يزل يرمقه بعينه حتى كان منه قريباً، فتوارى عنه ثم صاح به فقال: أنت لقمان؟ قال: نعم. قال: ما قال لك ابنك هذا السفية؟ قال: يا عبد الله من أنت؟ ما أسمع كلامك ولا أرى وجهك، قال: أنا جبريل، لا يراني إلا ملك مقرب، أو نبي مرسل، لولا ذلك لرأيتني، فما قال لك ابنك هذا السفية؟ قال: أما علمت ذلك؟ فقال جبريل: مالي بشيء من أمركما علم، إلا أن حفظتكما^(١) أتوني وقد أمرني ربي تعالى بخسف هذه المدينة، فدعوت ربي أن يحبسكما عني بما ابتلي به ابنك، ولولا ذلك لخسف بكما مع من خسف به، ثم مسح جبريل عاتق القاصدين بيده على قدم الغلام، فاستوى قائماً، ومسح يده على الذي كان فيه الطعام فامتلاً طعماً، ومسح على الذي كان فيه ماء فامتلاً ماء، ثم حملهما وحاربهما فرحل بهما كما يرحل الطير، فإذا هما في الدار التي خرجا منها بعد أيام وليالٍ^(٢).



(١) يقصد الحفظ من الملائكة.

(٢) «مختصر منهاج القاصدين» ص (٣٨٩، ٣٩٠).

ثمامة بن أثال

روى البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث النبي صلى الله عليه وسلم خيلاً قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «ماذا عندك يا ثمامة؟»، فقال: عندي خير. يا محمد إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكرك، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت. فترك حتى كان الغد، ثم قال له: «ما عندك يا ثمامة؟»، فقال: عندي ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكرك، فتركه حتى كان بعد الغد فقال: ما عندك يا ثمامة فقال: عندي ما قلت لك. فقال: «أطلقوا ثمامة». فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك اليوم أحبّ الوجوه إليّ، وما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فقد أصبح دينك أحبّ الدين إليّ. والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحبّ البلاد إليّ. وإن خيلك أخذتني، وأنا أريد العمرة، فإذا ترى؟ فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صباأت؟ قال: لا والله ولكن أسلمت مع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا والله لا يأتكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي صلى الله عليه وسلم ^(١).

فانظر إلى خروج ثمامة إلى أداء العمرة ^(٢)، فقدّر الله عزّ وجلّ أن يقع في أيدي المسلمين ويقبض عليه أسيراً عند أبغض الناس إليه فلما ربط في سارية من سواري المسجد ورأى المسلمين وهم يصلون واستمع إلى كلام الله ألقى الله في قلبه الإسلام. فدخل في دين الله. فكان وقوعه في الأسر من أجل نعم الله عليه لأنه كان سبيّاً في إسلامه. فسبحان مدير الأمور!

(١) رواه البخاري ح [٤٣٧٢]، و«فتح الباري» (٦/٦٨٨)، «زاد المعاد» (٢/١١٩).

(٢) في «السيرة الحلبية»: أن ثمامة خرج متنكراً لاغتيال النبي صلى الله عليه وسلم بأمر من مسيلمة الكذاب.

(إسلام شيطان)

جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية في الحجر بعد موقعة بدر بيسير وكان عمير من شياطين قريش ممن كان يؤذي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه وهم بمكة، وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر، فذكر أصحاب القليب ومصابهم، فقال صفوان: والله إن في العيش بعدهم خير.

قال له عمير: صدقت والله، أما والله لولا دين عليّ ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قتلهم علة، ابني أسير في أيديهم.

فاغتمها صفوان وقال: عليّ دينك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي، أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم.

فقال له عمير: فاكتم عني شأنك وشأنك. قال: أفعل.

ثم أمر عمير بسيفه فشقَّه له وسَّمَّ، ثم انطلق حتى قدم به المدينة، فبينما هو على باب المسجد ينيخ راحلته رآه عمر بن الخطاب - وهو في نفر من المسلمين يتحدثون ما أكرمهم الله به يوم بدر - فقال عمر: هذا الكلب عدو الله عمير ما جاء إلا لشر. ثم دخل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا نبي الله، هذا عدو الله عمير قد جاء متوشحاً سيفه، قال: «فأدخله علي»، فأقبل إلى عمير فكبَّه بحمالة سيفه، وقال لرجال من الأنصار: ادخلوا على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به، فلما رآه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وعمر أخذ بحمالة سيفه في عنقه - قال: «أرسله يا عمر، ادن يا عمير»، فدنا وقال: أنعموا صباحاً، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قد

أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة». ثم قال: «ما جاء بك يا عمير؟» قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم، فأحسنوا فيه.

قال: «فما بال سيف في عنقك؟» قال: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئاً؟

قال: «اصدقني، ما الذي جئت له؟» قال: ما جئت إلا لذلك.

قال: «بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرت أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين عليّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمدًا، فتحمل صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني، والله حائل بينك وبين ذلك».

قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم تشهد شهادة الحق. فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَقَهُوا أَحْكَامَ فِي دِينِهِ، وَأَقْرَأُوهُ الْقُرْآنَ، وَأَطْلَقُوا لَهُ أَسِيرَهُ».

وأما صفوان فكان يقول: أئبشوا بوقعة تأتكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر.

وكان يسأل الركبان عن عمير، حتى أخبره راكب عن إسلامه، فحلف صفوان ألا يكلمه أبداً، ولا ينفعه بنفع أبداً.

ورجع عمير إلى مكة وأقام بها يدعو إلى الإسلام، فأسلم على يديه ناس

كثير (١) (٢).

(١) «سيرة ابن هشام» (١/٦٦١-٦٦٣).

(٢) انظر لتقدير الله يقع ابنه في الأسر ويجلس وهو مع صفوان ليتفقا على قتل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويأتي لتنفيذ ذلك

فأراد الله به خيراً، ويرى معجزة ظاهرة للنبي كانت سبباً في إسلامه، ودخوله في دين الله.

ثمرة الأمانة

من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه. يروي مشايخنا أن طالباً من طلاب الأزهر قدم من بلاد الصعيد، فجلس في حلقة شيخه، وتأخرت نفقته من الصعيد، ففارق حلقة الشيخ عساه أن يحصل على كسيرات من الخبز والقيبات يقات بها ويتقوى عليها، فينما هو يسير إذ دخل في شارع ضيق، فوجد باباً مفتوحاً، ووجد خزانة من طعام، فمد يده إلى الطعام، وكان من المحشي، ثم بعد أن تناول قطعة منه ووضعها في فمه تذكر أنه جاء ليطلب العلم، والعلم نور، والأكل من هذا الطعام دون أن يستحل صاحبه يظلم القلب، ولا يمكن أن يجتمع النور والظلمة، وسيطرده أحدهما الآخر، فترك هذا الطعام، وعاد لحلقة الشيخ وبه من الجوع ما لا يعلمه إلا الله، وبعد أن انتهى الدرس إذا بامرأة تأتي، وتكلم الشيخ كلاماً لم يفهمه الحاضرون، ثم قال الشيخ لطالب العلم هذا: يا عبد الله، ألك رغبة في الزواج؟ فقال: أتمزأ بي، والله من ثلاثة أيام ما دخل جوفي طعام، فكيف أتزوج؟ قال الشيخ: إن هذه المرأة تذكر أن زوجها توفي وترك بنتاً واحدة، وكان ذا ثروة ومال كثير، وتريد أن يتزوج ابنتها رجل صالح يعيش معها ومع ابنتها، وينمي المال ويرعاه، فقال: إن كان كذلك فلا بأس، فخرج الشيخ والتلميذ والمرأة والحاضرون يسرون حتى دخلوا البيت الذي دخله هذا الشاب من قبل، فلما وضع الطعام بكى هذا الشاب، فقال له الشيخ: لم تبكي؟ هل أكرهناك على الزواج؟ قال: لا، ولكني قبل سويقات دخلت هذا البيت لأكل من هذا الطعام الذي وضع بين أيدينا، فتذكرت أنه حرام فتركته لله فأعاده الله إليّ ومعه غيره عن طريق الحلال ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [التلاق: ٢-٣].

وضعته أنثى

أخرجوها من غرفة العمليات.. أعصابها مشدودة.. وقدمت له الممرضة المولود الجديد.. نسي نفسه وزوجته والعالم بأسره.. ركض إلى الممرضة مسرعاً:

- ماذا رزقت؟

- أنثى.

تيارات قاسية من الحزن تخرج من جوفه ثم يحلقه وتخترق رأسه..

- إنها جميلة جداً.. وقالت أمها: إنها وجد (أي سميتها وجد)..

- نظر إليها.. ثغر «وجد» الطري يتحرك، وكأنها تريد أن تبسم لوالدها..

لكن عيونه كانت تتحدث: لماذا أتيت؟ لم أريدك أنت! كم انتظرت هذا المولود..

يا الله! أيسع علينا سبحانه نعمه ثم نركلها بدلاً من الشكر والحمد!!

كان خيراً لنا أن نركل ما رسب في أذهاننا من عادات مقبلة وتقاليد سقيمة تدل على

سخف رؤانا وتفاهة تفكيرنا وقلة حيلتنا في التعامل مع مطالب الحياة..

دخل إلى زوجته بعد أن نقلوها إلى غرفتها.. تحدثت إليه:

- ألم ترها؟! إنها جميلة جداً. انظر إلى هذه الشعرات الشقراء، ما أروعها..

- قال باقتضاب: حمدًا لله على سلامتكم.

تراجعت الزوجة واغرورت عينها بالدموع.. ضمت ابنتها.. نظرت إليه نظرة

فاحصة..

كان يعميها الحزن الذي تلبسه.. أشاحت بوجهها عنه وألقت (وجد) ثديها.. تدفقت

في لبنها جرعات زائدة من الحب والحنان عليها تعوضها ما ستفقد من حنان الأب!

مرت الأيام.. (وجد) تكبر وتحلو.. وأبوها غير مكترث بها.. غافل عن لحظات

السعادة التي تغمر الوالدين عندما يراقبان حركات وسكنات ولدهما..

اليوم لشعة.. غداً تحبو.. وبعدها تمشي.. وهكذا..

عينها الزرقاوان تلمعان وتسحران كل من يراها بصفتيها وبريقها.. صار عمرها ثلاث سنوات.. وخصل الشعر الأشقر وصلت إلى كتفها.. ثغرها شديد الحمرة، بدأ يتحرك بكلمات بريئة تدغدغ القلب..

ذات يوم كان أبوها يجلس على الأريكة ذاهلاً عما حوله..

فأمسكت الكرة ورمتها إليه.. ارتطمت الكرة برجله لم ينتبه!

ركضت نحو الكرة ورمتها إليه مرة أخرى.. أيضاً لم ينتبه..

صعدت على الأريكة.. قبلت يده ووضعتها على وجهها.. لكنه لم يتحرك.. نظرت

إليه فإذا هو نائم.. وضعت رأسها على حضنه وبدأت تغني بكلمات قليلة حفظتها من

أمها عندما كانت تغني لها لتنام.. وهي تمر يدها على يده وكأنه طفلها وهي تنومه..

وهكذا حتى نامت هي الأخرى..

دخلت الأم فوجدت الاثنين نائمين معاً.. تفاجأت! وامتلات عينها بالدموع

فرحاً.. عندما استيقظ الأب قَبَّل (وجد) على رأسها قبلة سريعة ومضى إلى عمله.

ولأول مرة منذ أن ولدت أخذ يفكر ماذا سيحب لها وهو عائد إلى المنزل.. لقد

تحيل أنه يعطيها السكاكر.. وأنها فرحة..

امتلاً قلبه بالنشوة عندما تحركت في مخيلته هذه الصورة.. أوقف سيارته.. نزل إلى

البائع وجلب لها كيساً مليئاً بالسكاكر..

عاد إلى البيت في المساء.. فتحت زوجته الباب وهي في ثياب الخروج!

- ماذا دهالك؟! لماذا أنت خارجة في مثل هذا الوقت؟!

- أبي مريض، نقلوه إلى المستشفى وأريد أن أراه..

- إذا أوصلك..

- لا، ابقى أنت عند (وجد) وسيأتي أخي ليأخذني الآن..
- حسناً..

ذهبت أم (وجد) وبقي هو مع وجد وحدهما في المنزل..
بدل ملابسه ودخل إلى غرفة الجلوس.. كانت وجد تجلس على الأرض وتداعب
دميتها.. رسم ثغرها ابتسامة مميزة كأنها تستدرّ عطفه..

- أتعرفين ماذا جلبت لك يا وجد؟!

- ردت بابتسامة..

- خذي هذه السكاكر.. إنها ملونة ولذيذة..

احتضنت وجد السكاكر وكأنها أمسكت كنزًا ثمينًا.. كادت تطير بما تحمل في
يديها.. أشارت إليه أن يفتح لها واحدة.. ففعل وألقمها إياها بيده.. مصت إصبعه وهو
يضعها فيها.. لأول مرة يضع لها شيئًا في فمها!! ما هذا الشعور الرائع الذي حرم نفسه
منه كل هذه الأيام؟!

جلس على أريكته.. و(وجد) تلعب مع دميتها.. بدأ يحس بالتعب.. مد رجليه على
الأريكة وحدث نفسه: اليوم كان شاقًا جدًا.. وأخذ ينظر إلى (وجد) وكأنه يراها لأول
مرة.. التعب يزداد.. صورة وجد تهتز في عينيه من شدة التعب.. اصفر وجهه! إنه يشعر
بالاختناق.. حاول فتح النافذة إلا أن حركته مشلولة.. فك زر القميص قرب رقبته..
وجهه بدا شاحبًا جدًا.. العرق بدأ يتصبب بغزارة.. قلبه ينبض بسرعة.. أطرافه باردة..
حاول الوقوف لطلب المساعدة، وقع على الأرض قبل أن تصل يده إلى الهاتف.. لم يعد
يرى شيئًا.. حتى قدرته على الكلام أصبحت مشلولة.. الظلام يملأ رأسه! عرف أنه
موت.. صار يحاول أن يذكر الله بلسانه عله يغفر له.. لكن لسانه لم يستجب.. إنه يشعر
بنفسه قربه.. آه إنها (وجد).. إنها قربه! زحفت (وجد) نحوه.. يداها ترجفان وعيناها
تبكيان.. المسكينة صغيرة لم تعرف ماذا ستفعل!!؟

أخرجت السكرة من فمها فهي لا تملك غيرها!! وضعتها في فم أبيها.. ضمت رأسها بكلتا يديها وهي تبكي وتلثمه من كل مكان في وجهه.. بدأت أمارات الارتياح تظهر على وجهه.. عادت زوجته بعد زمن قليل وأحضرت الطيب من فورها.. أجرى له الطيب الفحوصات وقال: لقد أصبت بانخفاض حاد في السكر وكدت تفقد حياتك ولكن هذه السكرة هي التي أنقذتك!!

أخذ بيكي كولد صغير..

استغرب الطيب وانسحب لا يدري لم كل هذا البكاء؟!

حملت الأم صغيرها ومشيت باتجاه غرفة نومها..

فناداها: (أم وجد)! لأول مرة يناديها (أم وجد)!!

استدارت نحوه مستفهمة ماذا يريد منها؟

- أريد وجد..

- إنها نائمة..

- أريد أن أقبلها..

- إنها نائمة، قد توقظها..

- تعالي إلي..

بكت أم وجد.. ضمها زوجها وهي حاملة ابنتها.. وقال لها: سامحيني أرجوك..

سامحوني.. سامحني يا الله! اغفر لي.. حمدًا لك يا الله.. حمدًا لك.. وضعت الأم إصبعها

على فمها وأشارت إليه: اخفض صوتك.. إنها نائمة.. ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ

لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

الهروب إلى الموت

هل يفر الإنسان من قدره؟! وهل هناك ما يمنع الموت؟!؟

في هذه القصة تكون الإجابة:

تركها زوجها وحيدة بعد أن وافاه الأجل، وبقيت تصارع الحياة.. تشقى لسعادة ابنها الوحيد، وتكد من أجله، وقد رفضت الزواج مراراً، وكانت لابنها الأب والأم، والصديق، حتى أنها تنتظره عند الباب عند عودته من المدرسة، وقد نشأ نشأة حسنة، فلقد علمته وربته على الفضيلة.. فكان من أوائل الطلبة.

وحين أتم دراسته الثانوية أراد أن يكمل تعليمه في إحدى جامعات الدول العربية ولكن الأم رفضت الفكرة؛ لأنها لا تطيق الابتعاد عن ولدها الوحيد، ولكن شغف الابن بالعلم جعله يقدم أوراقه، وأتم إجراءات السفر دون علمها حتى كانت ليلة السفر حيث أخبرها بأنه قد حجز تذكرة إلى بغداد وأن موعد السفر غداً.

حزنت الأم.. ولكنها أخفت حزنها، وفكرت في طريقة تبقي فيها ولدها بجانبها.. وفي منتصف الليل أخفت الأم جواز سفره والتذكرة، وفي الصباح ودع الابن والدته وانصرف، وفي المطار منعه رجال الشرطة من المغادرة، فتذكر أن أمه هي التي أخفت جواز سفره.. فرجع غاضباً، ودار بينه وبين أمه جدال وشجار طويل، ولما لم يجد فائدة من الحديث دخل غرفة نومه ونام.. كانت الأم تستمع بسرور إلى المذياع وهي تجهز طعام الغداء، لعلمها أن ولدها لن يسافر وقد لفت انتباهها صوت المذياع وهو يقول:

- لقد سقطت الطائرة المتجهة إلى بغداد وتوفي جميع من فيها.. فرحت الأم فرحاً شديداً لنجاة ابنها الوحيد من الموت، وذهبت لتخبره بالقصة، فوجدته.. قد فارق الحياة

على فراشه^(١)!!

(١) «فصص واقعية» ص [١٢٩].

الله هو الحكم العدل

كان رجلاً معدماً ولكنه كان سعيداً.

وكانت له عائلة من زوجة وخمسة أولاد وأختين ووالدة طاعنة في السن، له حانوت يبيع فيه الخضروات.. اليقطين، والباذنجان، والسلق، والفجل، والطماطم.. إلخ.

حانوته هذا في طريق فرعية، يبيع فيه سلعته على جيرانه من الفقراء فلم يكن له من المال ما يؤجر به حانوتاً في موقع ممتاز أو يشتري به سلعة ممتازة.

أما داره الخرية فتسمى من باب المجاز داراً، وهي في حقيقتها غرفة واحدة حولها ركاب من الأناض، وفي هذه الغرفة ينام أفراد العائلة يطبخون ويستحمون.

وإذا ما عاد الرجل إلى داره بعد غروب الشمس، ومعه الخضرة، واللحم، والخبز، تستقبله العائلة كلها بالفرح والتصفيق، والأغاني، والأهازيج، ويتناولون منه ما بيديه من طعام، ويهرعون إلى القدر لإعداد العشاء.

ولم يكن في كل يوم يحضر اللحم، فإذا كان مبيعه اليومي رابحاً استطاع أن يشتري لحماً، وإلا فعشاء عائلته من بقايا ما كسد من خضرة حانوته.

وكانت تلك العائلة تسكن إلى جوار حاكم في المحكمة العليا، وكان ذلك الحاكم يعطف على تلك العائلة ويزورها بين حين وآخر.

وهذا الحاكم كثيراً ما حدثني عن عائلة جاره، قائلاً: لم أر في حياتي عائلة سعيدة مثل هذه العائلة، ولم أر فرحاً غامراً كالفرح الذي يشيع في العائلة عندما يعود ربها من عمله مساءً، وكنت كثيراً ما أحب أن أعيش وقتاً سعيداً بينها حين يصل جاري إلى داره فتستقبله العائلة كلها بالتهليل والتكبير، ثم يبدأ عملها الدائب في إعداد العشاء، فإذا نضج الطعام بدأوا يتناولونه من إناء كبير فإذا انتهوا من عشايتهم، حمدوا الله وشكروه،

وأكثرُوا من حمده وشكره، ثم أروا إلى فراشهم الخلق البسيط فرحين قانعين، لا يتمنون على الله غير الستر والعافية، وألاً يحتاجوا إلى إنسان.

وفي يوم من أيام الخريف، كانت العائلة تنتظر عائلتها مساءً على باب الدار، فإذا بهم يرون بعض الشرطة يحملون نعشاً، فلما تبينت العائلة الأمر وجدت معيها الوحيد هو المحمول في النعش.

كان قد أغلق حانوته، وقصد القصاب (الجزار) المجاور فاشترى لحماً، وقصد الخباز القريب فاشترى خبزاً، وحمل بقايا خضرتة من دكانه، فلما أراد عبور الشارع دهسته سيارة طائشة، فمات الرجل فوراً، وتبعثر ما كان معه من زاد.

وتجمّع الجيران حول النعش، وجمعوا من سراهم بعض المال، وأنفقوا على تجهيز الجثة الهامدة ما جمعه، وقدموا ما تبقى من مال زهيد إلى العائلة، وفي صباح اليوم التالي واروا الفقيد إلى قبره.

وكان أكبر أولاده في سن الخامسة عشرة، يدرس في الصف الثاني في المدرسة المتوسطة الشرقية؛ ليُعد نفسه ليكون موظفًا صغيرًا بعد تخرجه من الإعدادية فيعاون أهله.

وبعد يومين من موت والده، نفذ آخر ما جمعه الجيران من مال للعائلة، وفي اليوم الثالث قصد حانوت والده.

وبدأ العمل فيه كل يوم بعد غروب الشمس كما كان يفعل والده.

ولكن الایتسامات غاضت إلى غير رجعة.. والفرح مات إلى الأبد..

وكان الطعام الذي تتناوله العائلة ممزوجاً بالدموع.. لقد دفنت العائلة سعادتها مع

فقيدتها الحبيب..

ومرت الأيام ثقيلة، بطيئة، ودار الزمن دورته، فانقضت ثلاث سنوات ودُعي الولد الكبير إلى الخدمة في الجندية بعد أن استكمل الثامنة عشرة من عمره.

واجتمعت العائلة لتداول الرأي هل يترك الابن الثاني مدرسته وقد أصبح في الصف الرابع الإعدادي ولم تبق له غير سنة؛ ليتخرج من الإعدادية؛ ليتولى إدارة حانوت أخيه؟ وإذا لم يفعل فمن يعيل أهله.

واستقر رأي العائلة على بيع الدار، ولو أن الخروج منها كخروج الشاة من جلدتها، لا يُسمّى إلا موتًا أو سلخًا..!

والتحق الابن الكبير بالجندية في بلد مجاور يتدرب على استعمال السلاح، وكان معلم التدريب العسكري يلاحظه فيجد فيه ذمولا وانصرافا عن التدريب، فكان ينصحه تارة، ويعاقبه بالتعليم الإضافي تارة أخرى.. دون جدوى.

لقد كان حاضرا كالعائب، وكان جسمه فقط مع إخوانه الجنود في التدريب، ولكن عقله كان بعيدا.. بعيدا.. هناك عند عائلته.

واستدعاه معلمه يوما، وسأله عن مشكلته، ففتح له قلبه وأخبره بأمره، فبادله المعلم الإنسان حزنا بحزن، وأسى بأسى، وكف عن ملاحظته في أمر إتقان التدريب.

وعرض المعلم مشكلته على أمر الفصيحة، فأمر بتعيينه في مطبخ الجنود يغسل القدور، ويقطع اللحم، ويوقد النار ويوزع الطعام، أما أمه.. فكانت هي أيضا حاضرة كالعاقبة.

استقرضت بعض المال من أحد ساسة بيع الدور؛ لتطعم العائلة به، ورهنت سند الدار عند السمسار وعرضت الدار للبيع.

واستمر عرض الدار أيامًا على الراغبين بشرائه، وأخيرًا وبعد مرور عشرين يومًا، باعت الدار بأربعمئة دينار، ثم قضت تسعة أيام في معاملات حكومية رتيبة لنقل ملكيتها إلى المالك الجديد.

وبقي يوم واحد على موعد إعطاء البدل النقدي عن ولدها، وكان عليها أن تسافر إلى المدينة التي استقر فيها ولدها في الجندية مساء اليوم التاسع والعشرين؛ لتسلم البدل النقدي صباح اليوم الثلاثين، فإذا تأخرت عن ذلك الموعد ساعة فلن يقبل من ابنها البدل النقدي.

وقصدت الأم مأوى السيارات التي تنقل الركاب من بلدتها إلى بلدة ولدها، فوجدت السيارات ولم تجد الركاب.

كان الوقت قبيل الغروب من أيام الصيف، وانتظرت ساعة في مأوى السيارات دون أن يحضر مسافر واحد.

وانتظرت على أحر من الجمر، وقد غابت الشمس، والمسافة بين المدينتين حوالي أربعين ومائتي كيلو مترًا تقطع بالسيارات في ساعتين ونصف فإذا لم تسافر ليلاً، ضاع عليها الوقت ولن تصل إلى مدينة ولدها إلا في صباح اليوم التالي.

وعرضت على سائق إحدى السيارات أن تستأجر - وحدها - سيارته على أن يسافر بها فورًا.

وقبض السائق أجرة سيارته كاملة من المرأة وتحركت السيارة في طرق جبلية وفي الطريق تحدثت السائق إلى المرأة، فعلم منها قصة بيع الدار، وقصة دفع البدل النقدي عن ولدها.

وتدخل الشيطان بينهما، فلعب دوره في تخريب ضمير السائق، فعزم على تنفيذ خطة لاغتصاب المال من المرأة المسكينة.

وفي إحدى منعطفات الطريق، حيث يستقر إلى جانب الطريق الأيمن وادٍ صخري سحيق، أوقف السائق سيارته فجأة، وسحب المرأة قسراً من السيارة إلى خارجها، ونزلا إلى مسافة عشرين متراً في الوادي السحيق، وهناك طعن المرأة بخنجره عدة طعنات، فلما تراخت وظن أنها فارقت الحياة، سلبها المال، وعاد إلى سيارته تاركاً المرأة في مكانها تنزف الدماء من جروحها.

وقصد المدينة التي كان متجهاً إليها فقد خشي أن يعود إلى المدينة التي خلفها وراءه؛ لئلا ينكشف أمره، إذ يعود إليها بدون مسافرين، وقبل الوقت المعقول لذهابه وإيابه...! وعندما وصل إلى المدينة، أوى إلى مأوى السيارات، فزعم لأصحابه أن المسافرين الذين كانوا معه قد غادروا سيارته بعد عبور الجسر، ووجد ركاباً ينتظرون السفر إلى البلدة التي غادرها مساءً، فسافر بهم عائداً من نفس الطريق.

وحين وصل إلى المكان الذي ارتكب فيه جريمته الشنعاء، أوقف سيارته، وأدعى لركابها أنه يريد أن يقضي حاجته ثم يعود إليهم فوراً...! وانحدر إلى الوادي، فسمع أنيباً خافتاً، فقصد المرأة السابحة ببركة من الدم، وقال لها: ملعونة ألا تزالين على قيد الحياة حتى الآن!

وجهدت المرأة في مكانها، وانتظرت مزيداً من الطعنات...!

وانحنى السائق إلى صخرة ضخمة ليحطم بها رأس المرأة الجريح، وما كاد يضع يديه على الصخرة إلا وصرخ صرخة عظيمة هزت الوادي الصخري السحيق، ورددتها جنباتها الخالية إلا من الوحوش والأفاعي والهوام، وسمعها ركاب السيارة، فهرعوا لنجدته.

كانت تحت تلك الصخرة الضخمة التي أراد السائق المجرم رفعها؛ ليقذف بها رأس المرأة الجريح، حية سامة لدغته حين كان بهم بحمل الصخرة العاتية، فسقط إلى جانب المرأة يستغيث ويتألم...!

وحمل المسافرون السائق، وحملوا المرأة، وانتظروا حتى قدمت سيارة أخرى فاستوقفوها وطلبوا من سائقها حمل المرأة والسائق إلى المستشفى التي كانت في المدينة التي يستقر فيها ولد المرأة الجريجة.

وفي الطريق فارق الحياة ذلك السائق المجرم متأثراً بالسم الزعاف.

وفي المستشفى، قدم الشرطة والمحققون العدليون، فعرفوا القصة، وانتزعوا مال المرأة من طيات جيوب السائق اللعين، وطلبت المرأة حضور ولدها، فحضر في الهزيع الأخير من الليل.. وراحت المرأة في غيبوبة عميقة، فظن الأطباء والمرضون أنها تعاني سكرات الموت.. وعمل الطبيب على نقل الدم إليها.

وفي ضحى اليوم التالي فتحت عينيها لتقول لولدها: «ادفع البدل النقدي سريعاً»، ثم أغمضت عينيها وراحت في سبات عميق ودفع الولد بدله النقدي وسُرح من الجيش.. وتحسنت صحة أمه يوماً بعد يوم، حتى تماثلت للشفاء حيث غادرت المستشفى إلى أهلها.

وذهب قصة نجاحها، وقصة موت السائق، وقصة الحية المنقذة، شرقاً وغرباً، وأصبح حديثها حديث الناس جميعاً.. ولقد كان الوادي الذي ارتكب السائق فيه جريمته، والذي قذف بين صخوره المرأة الجريجة، من الوديان الموحشة الخالية من الماء والكلاب، فلا يسلكه الناس ولا يطرقونه، حتى الرعاية لا يجدون فيه ما يفيد ماشيتهم فأصبح موطناً آمناً للذئاب والأفاعي.

وما كانت المرأة الجريجة لتسلم من الموت الأكيد، لو لم يعد إليها الجاني مدفوعاً بغريزة حب الاستطلاع.

وما كان المسافرون مع الجاني ليعرفوا موضع المرأة، لو لم يصرخ الجاني صرخة مدوية بدون شعور ولا تفكير متأماً من لدغة الأفعى السامة.

وما كان ولدها ليدفع البديل النقدي لو قدمت أول سيارة من المدينة التي كان فيها؛ لأنها ستنتقل أمه، ولضاع عليه الوقت المحدد لدفع البديل النقدي، لقد كان في ذلك كله من تدبير العلي القدير..

قال الحاكم الذي هو جار لتلك العائلة: سمعت قصة جارتنا كما سمعها الناس، فاشتركت مع الجيران الآخرين لجمع ثمن دارها؛ حتى تستعيدها من صاحبها الجديد. وسمع صاحب الدار الجديد هو الآخر بقصتها، فأعاد إليها سند الدار وملكيته، وبقي المبلغ الذي جمعه لها الجيران مع ثلاثمائة دينار من أصل ثمن الدار، فجددت بذلك المبلغ بناء الدار، وأقبل الناس على حانوت ولدها، يشترون سلعته ويتسابقون على معاونته.. وفي خلال سنة واحدة تضخم عمله، وأقبلت عليه الدنيا، فانتقل إلى حانوت كبير في شارع عام في موقع محترم..

ومرت السنون، وفي كل عام كان في الدار بناء جديد..

وتخرج الأولاد من مدارسهم واحداً بعد الآخر، فأصبح أحدهم مهندساً، والآخر طبيباً، والثالث ضابطاً في الجيش.. ولم يعد طعامهم اليوم من الشاي والخبز، أو من الخبز والخضرة بل كان لهم لحم في كل يوم مع ألوان شهية أخرى من الطعام، وفتح الله عليهم باب بركاته، وأغدق عليهم رعايته، وجعلهم مثلاً للخلق الكريم بين الناس، متعاونين في السراء والضراء.

وعلى ضفاف دجلة قرب الجسر الكبير في بغداد، دار عامرة بالخير، والوفاق، والسعادة، هي الدار الجديدة التي انتقلت إليها العائلة الصابرة^(١).

(١) «ساعة وساعة».

القارئ والحدائيت (الحدأة)

عن حماد بن سلمة أن عاصم بن أبي النجود، شيخ القراء في زمانه، قال:

أصابتنى خصاصة، فجئت إلى بعض إخواني، فأخبرته بأمرى، فرأيت في وجهه الكراهة، فخرجت من منزله إلى الصحراء فصليت ما شاء الله، ثم وضعت وجهي على الأرض، وقلت:

يا مسبب الأسباب، يا مفتح الأبواب، يا سامع الأصوات، يا مجيب الدعوات، يا قاضي الحاجات، اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عن سواك.

قال: فوالله ما رفعت رأسي حتى سمعت وقعة بقري، فرفعت رأسي، فإذا حدأة طرحت كيساً أحمر، فأخذت الكيس، فإذا فيه ثمانون ديناراً وجوهرة ملفوفة في قطنة.

قال: فبعت الجوهرة بمال عظيم، وفضلت الدينانير، فاشتريت بها عقاراً وحدث الله على ذلك^(١).



(١) «حياة الحيوان» للدميري.

أربع دعوات

كان هناك رجل سكير دعا قوماً من أصحابه ذات يوم فجلسوا ثم نادى على خادمه ودفع إليه أربعة دراهم وأمره أن يشتري بها شيئاً من الفاكهة للمجلس. وفي أثناء سير الخادم مر بالزاهد منصور بن عمار وهو يقول: من يدفع أربعة دراهم لفقير غريب دعوات له أربع دعوات. فأعطاه الغلام الدراهم الأربعة فقال له منصور بن عمار: ما تريد أن أدعو لك. فقال الغلام: لي سيد قاس أريد أن أتخلص منه والثانية - أن يخلف الله علي الدراهم الأربعة، والثالثة - أن يتوب الله على سيدي والرابعة - أن يغفر الله لي وليسيدي ولك وللقوم. فدعا له منصور بن عمار، وانصرف الغلام ورجع إلى سيده الذي نهره وقال له: لماذا تأخرت وأين الفاكهة؟ فقص عليه مقابله لمنصور الزاهد، وكيف أعطاه الدراهم الأربعة مقابل أربع دعوات.

فسكن غضب سيده وقال: وما كانت دعوتك الله؟ قال سألت لنفسي العتق من العبودية. فقال السيد: قد أعتقتك فأنت حر لوجه الله تعالى، وما كانت دعوتك الثانية؟ قال: أن يخلف الله عليّ الدراهم الأربعة. قال السيد: لك أربعة آلاف درهم، قال: وما كانت دعوتك الثالثة؟ قال: أن يتوب الله عليك. فطأطأ السيد رأسه وبكى وأزاح يديه كؤوس الخمر وكسرها، وقال: تبت إلى الله لن أعود أبداً، وقال: فما كانت دعوتك الرابعة؟ قال: أن يغفر الله لي ولك وللقوم، قال السيد: هذا ليس إليّ وإنما هو للغفور الرحيم. فلما نام السيد تلك الليلة سمع هاتفاً يهتف به: أنت فعلت ما كان إليك لقد غفر الله لك وللغلام ولمنصور بن عمار وللحاضرين أجمعين.

طعام بطعام

كان شيخ كريم، فقير في حاله لكنه لا يرد سائلاً قط، ولطالما لبس الجبة أو الفروة، فلقبي بردان يرتجف، فنزعها فدفعها إليه وعاد إلى البيت بالإزار، وطالما أخذ السفارة من بين أولاده فيعطيهما السائل، وفي يوم من أيام رمضان وقد وضعت المائدة انتظاراً للأذان فجاءه السائل يقسم أنه و عياله بلا طعام، فابتغى الشيخ غفلة من امرأته وفتح له وأعطاه الطعام كله، فلما رأت ذلك امرأته صرخت وأقسمت - من الغضب - أنها لا تبقى عنده بينما هو ساكت، ولم تمر نصف ساعة حتى قرع الباب وجاء من يحمل الأطباق فيها ألوان الطعام والحلوى والفاكهة، فسألوا: ما الخبر؟ وإذا هو أن أحد الأغنياء كان قد دعا بعض الكبار فاعتذروا، فغضب وحلف ألا يأكل أحد من الطعام، وأمر بحمله كله إلى دار الشيخ الفقير الكريم.

أخي الحبيب: أنفق ولا تخشى الفاقة فلقد قال جريراً كما في الصحيحين: «أنفق أنفق عليك»، وقال النبي: ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ ﴾ [نساء: ٣٩].

وقال صلى الله عليه وسلم: «ثلاث أقسم عليهن: ما نقص مال من صدقة..».



ويرزقه من حيث لا يحتسب

وقد ذكر التنوخي في كتابه «الفرج بعد الشدة» ما يناسب هذا المقام: أن رجلاً ضاقت عليه الحيل، وأغلقت عليه أبواب المعيشة، وأصبح ذات يوم هو وأهله لا شيء في بيتهم، قال: فبقيت أنا وأهلي اليوم الأول جوعى وفي الثاني، فلما دنت الشمس للمغيب، قالت لي زوجتي: اذهب وانطلق، والتمس لنا رزقاً أو طعاماً أو أكلاً، فقد أشرفنا على الموت. قال: فتذكرت قريبة لي امرأة، فذهبت إليها، وأخبرتها الخبر، قالت: ما في بيتنا إلا هذه السمكة، وقد أنتنت قلت، عليّ بها، فإننا قد أشرفنا على الهلاك، وذهبت بها وبقرت بطنها، فأخرجت منها لؤلؤة، بعثها بآلاف الدنانير، وأخبرت قريبتي، قالت: لا آخذ معكم إلا قسمي. قال: فاغتنيت فيها بعد، وأثتت من ذلك بيتي، وأصلحت حالي، وتوسعت في رزقي، فهو لطف الله سبحانه وتعالى ليس غيره.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَكُفُّمْ مِنْ نِعْمَتِي إِلَّا قَلِيلٌ مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِذْ نَسْتَوِيضُونَ رَبُّكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٩].



عاقبة الحسد

ورد أن رجلاً ترك ولدين بعد مماته وخلف لهما مالا لا بأس به فاقتسماه وتصرف كل منهما في حقه فاشتغل الابن الأصغر في التجارة وأخلص لله في عمله وكان كثير التصدق لا يبخل على عباد الله بنعمة فنمت تجارته وازدادت أمواله وأصبح ذا ثروة طائلة ولم يكن له أعداء لذلك كانت أمواله محصنة لا يؤثر فيها حسد. أما الابن الآخر فقد سلك طريق الغواية حتى أهلك ثروته في الخمر والميسر والزنا فنفدت أمواله عن آخرها وأصبح فقيراً لا يجد ما يقتات به ومع ذلك كان أخوه كثير العطف عليه يثويه ويقدم له من المأكل والملبس ما يكفيه. ولم يكتف هذا بعطف أخيه عليه بل أخذ الحسد يتمكن من قلبه لأخيه، وفكر في طريقة يضع بها ثروة أخيه حتى يسير مائلاً له في الفقر وبذلك يطمئن قلبه فلا يعايره الناس بفقره ويشيدون بسمعة أخيه فصار يجتهد للوصول إلى تنفيذ غرضه الدنيء وأخيراً اهتدى بوحى من إبليس إلى رجل حسود اشتهر بحسده وقليل من القوم من نجا من حسده.

وكان الحاسد ضعيف البصر لا يكاد يرى إلا عن قُرب. فذهب الأخ الأكبر إلى هذا الرجل المشهور بحسده وطلب منه حسد أموال أخيه مقابل أجر يدفعه عند هلاك ثروته وأخذه إلى طريق كانت تمر منه تجارة أخيه فبه الأخ الأكبر الحسود إليها (التجارة) قائلاً: استعد فقد قربت تجارة أخي وصارت على بُعد ميل واحد منا. فقال الرجل الحسود: يا لقوة بصرك أتراها على هذا البُعد؟! يا ليت لي بصر قوي مثل بصرك! فشعر صاحبنا بالمر في رأسه وأظلمت عيناه وعمي في الحال ومرت تجارة أخيه سالمة لا يمسه سوء.

امرأة مغربية، أدعت أعيننا

كنا في مستشفى النور في مكة المكرمة.. في غرفة العمليات.. حين طلبنا بالنداء من غرفة الطوارئ.. وبعد أن استطعت إنهاء بعض ما أقوم به.. تركت المهمة للزملاء لحين عودتي.. ذهبت مسرعاً إلى غرفة الطوارئ.. وإذا بكل شباب الأطباء ينتظرون قدومي أو أي من الجراحين على أحرّ من الجمر!!

امرأة مغربية جاءت للعمرة مغمى عليها.. ورجلها وأصابع قدميها زرقاء.. بل سوداء..

التشخيص واضح (غرغرينا) ولا بد من بتر الجزء الميت من الأصابع والقدم قبل أن ينتقل إلى باقي الأطراف خاصة أن السكر مرتفع عند المريضة..

والمشكلة أن زوج المريضة أو محرّمها يرفض التوقيع على ورقة الموافقة على إجراء العملية وإخلاء مسؤولية الأطباء في حالة إجراء أي عملية جراحية.. وهو إجراء مهم في مستشفيات العالم أجمع!!

- السلام عليكم.. يا حاج أنت زوجها أم محرّمها؟

- أنا زوجها..

- أنا الطبيب الجراح عبد الرحمن..

- أهلاً وسهلاً..

- لقد استدعاني الشباب من غرفة العمليات، وتشخيص الأطباء صحيح وزوجتك بحاجة إلى عملية جراحية لبتتر التالف من أصابعها وقدمها.. وكما قال الأطباء: إن لم نجبر العملية فقد يمتد موت الأطراف إلى مناطق أخرى من الجسم ويقتلها لا سمح الله وهي لا زالت في منتصف العمر.. أي: في الأربعينيات.. لم لا توقع هداك الله؟

والله يا دكتور.. لقد أخبرنا الأطباء في المغرب بهذا.. فرفضت التوقيع هناك.. وجئنا للعمرة طالين من الله الشفاء، وهذا ثاني يوم لنا في مكة عمَّرها الله، وقد أقسمت لها يمينا ألا أوقع على بتر أي طرف من أطرافها لسر تقوله هي لي فيما بعد.

- يا أخي التحلل من اليمين سهل.. خاصة والشرع يقول: الضرورات تبيح المحظورات، وكفارة اليمين ممكنة وأنت في ضرورة طيبة ملححة.

- لا أستطيع يا دكتور.. لقد أقسمت لها أشد الأيمان.. وقد أقسمت أن يميني هذا لا يمكن أن أكفره.

- يا أخي العزيز.. أيها الحاج الفاضل.. الحرم مليء والحمد لله بالعلماء.. نستطيع إرسالك بسيارة الإسعاف.. سلهم وخذ فتواهم واطر قرارك.
- لا يمكنني يا أخي.

حاول بعض الشباب التدخل.. منعتهم.. لقد مرت بي حالات حجاج ومعتمرين.. أمَّلتهم الموت في مكة المكرمة وأن يدفنوا فيها.. فهم يرفضون العلاج أملاً في الموت وأن يدفنوا على أرض الحرمين وهو تصرف خاطئ، لا بد لعلماء الشرع من التنبيه عليه.

- كما تريد يا حاج، ولكنك مسؤول أمام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لُو حُصَلُ أَي شِيءٍ لزوجتك.. ونرجو أن تعلم ما المسؤولية.. الأمر حياة أو موت وسنعطيك ورقة توقع عليها نتكلم فيها عن تشخيص حالة زوجتك وأنا شرحنا لك الأمر وأنت رافض إجراء أي عملية جراحية وأنت تتحمل كامل المسؤولية عن هذا القرار وتحلي طرف المستشفى والأطباء..

- لا مانع عندي..

وقع الورقة.. وعدت إلى غرفة العمليات لإنهاء العملية.. ورأيت الشباب قد قاموا بالواجب فشكرتهم وأمنينا العملية التي بين أيدينا والحمد لله بنجاح..

كنت شارده الفكر.. أفكر في هذه السيدة التي رفضت إجراء العملية..

إن ديننا الإسلامي الحنيف يحث على العلاج، ألم يشر المصطفى ﷺ فيما معناه أنه لا يوجد داء إلا وله دواء..

تُرى ما سبب إحجام هذه المرأة؟.. هل سأستطيع أنا وزملائي إقناعها بإجراء هذه الجراحة؟ أهو خوف المرأة من قطع قدمها وجعلها عاجزة عن السير فهي تؤثر الموت على أن تقطع أصابعها وقدمها.

كنت أفكر في كل هذا وأنا أسير نحو المرأة.. مشكلتنا حاليًا هي تخفيض مستوى السكر في الدم.. ومشكلتنا في العالم العربي أن المريض لا يعرف الحمية، ولا يستعمل الرياضة.. إنا لله وإنا إليه راجعون..

مررت على المرأة.. لا زالت في إغماء.. حالة الأصابع والقدم كما هي.. الأنسولين يعطى لها بين فترة وأخرى.. والمغذي موصل بزندها الأيمن.

خرجت من المستشفى ليلاً بعد يوم حافل من العمل.. ولكن موضوع المريضة المغربية جعلني شارده الذهن.. تُرى ما سبب امتناعها وزوجها عن إجراء العملية؟! وسبحان الله كثير من الناس يعتقد بأن الطبيب قد تعود على مواجهة الموت والمرضى.. فهو يتعامل مع الموت يومياً، ويعتقد الناس أن الطبيب لا يتأثر.. وهذا غير صحيح، فهناك أشخاص لا زالت صورهم في ذهننا رغم موتهم منذ عشرين سنة أو أكثر، بل نذكر عن البعض كل التفاصيل الدقيقة.. ويؤثر علينا بعضهم فتكون حياتنا جحيمًا.. خاصة على زوجاتنا الصابرات..

لكن، ومع كل ما نواجهه.. ما أجمل الدعاء الذي نسمعه من فم مريض بعد تخلصه من الألم.. وعند سيره على قدميه.. وعند تركه المستشفى.. إن لله عبادًا خصهم لخدمة الناس.. جعلنا الله منهم..

عدت صباحًا.. وكان أول ما قمت به مروري على المعتمرة المغربية.. حتى قبل مروري على من أجريت لهم عمليات بالأمس.. كانت الساعة السابعة صباحًا.. لا زالت في إغماء تام.. السكر والحمد لله قد نقص عندها ولكنه لا زال مرتفعًا.. القدم كما هي. مر أسبوع والمريضة كما هي.. في حالة إغماء.. بيد أن السكر بدأ في الانخفاض، الحمد لله..

وكنت أزورهم مرتين في اليوم.. صباحًا ومساءً.. كانت صحتها تتحسن ببطء شديد..

كنت أمر على مريض أجريت له عملية كبرى.. وإذا بالمرضة تجري..

- دكتور عبد الرحمن.. دكتور عبد الرحمن..

- نعم.. نعم..

- لقد عادت الحاجة إنعام إلى الوعي..

ويدون أن أناقش أو أتكلم.. أنهيت معايتي للمريض.. وسرت خلف الممرضة

بخطى سريعة نحو سرير الحاجة المغربية إنعام.

- السلام عليكم يا حاجة.

- وعليكم السلام.

قالتها بصوت ضعيف.

- كيف الحال.. نرجو الله أن تكوني بكل خير.

- لا بأس.

قالتها بلهجة مغربية.. كان السكر منخفضًا إلى درجة مقاربة للطبيعي.. ورأيت

تحسنًا قليلًا في أصابع القدم.

- يا حاجة كيف حال رجلك؟

- الحمد لله.

ولم أستطع أن أجلس معها.. وأحاول كشف السر.. فقد كانت ضعيفة جداً.. وطلبت من الممرضة أن تبدأ في مساعدتها في المشي.. فقد مر عليها أسبوعان لم تتحرك من السرير إلا بواسطة الممرضات.. بحيث يحركانها تحريكاً بسيطاً.. وكانت مسئولة العلاج الطبيعي لتدلك جسدها.. عدت إلى مرضاي الآخرين.

وفي وقت لم تكن فيه عندي أي عملية.. ولما عاينة مريض.. سررت بمفردي.. حتى وصلت إلى سرير الحاجة إنعام.. كانت تجلس بدون مغد في ساعدها.. تأكل علة لبن قليل الدسم.. وزوجها بجانبها وقد لفت الستائر سريرها فأعطتها نوعاً من الخصوصية. سلمت فابتسمت.. أخذت الأوراق المعلقة على السرير لرؤية آخر تحليل سكر لها.. ضربات القلب، ضغط الدم.. وفحصت القدم، لقد خف اللون قليلاً.. مما يدل على تحسن في الوضع.

- يا حاجة إنعام . كيف الحال؟

- بأسعد حال يا دكتور.. كل صلاة بمائة ألف صلاة، هل هذا المستشفى في الحرم؟

- نعم يا حاجة إنعام.. أنت في منطقة الحرم..

- الحمد لله..

- يا حاجة إنعام.. هناك سؤال أريد أن تبييني عليه.. ما موضوع رفضك العملية؟

- يا دكتور لن تؤمن أو تصدق بما أقول..

- كيف تحكمن على شيء مقدماً؟!.. قُصّي قصتك ولنر هل أصدقها أم لا؟

- كنت في المغرب.. وبدأت رجلي يتغير لونها.. وقال الأطباء: لا بد من قطعها..

وكنت مقررة دخول المستشفى لإجراء عملية البتر.. ولكنني نمت.. فأريت فيما يرى

النائم ملكاً سلم عليّ وقال: تقبل الله صيامك هذا اليوم وصلاة تهجذك ودمعاتك بعد

الدعاء.. جاء الشفاء من الله.. جاء الشفاء من الله.. اذهبي إلى بيت الله الحرام.. ولا بتر؛

بل شفاء.. لا بتر.. بل شفاء.. فسألت الملك:

- أو هم أنت أم حلم؟

- أنا ملك من ملائكة الله الصالحين إن شاء الله.. جئتكم مبشراً أشهد ألا إله إلا الله،
وأشهد أن محمداً رسول الله.

- صحوت.. فسألت مشايخ مراکش عن هذا الحلم.. فأجمع الجميع على أنه حلم
حقيقي.. وأن الشفاء قادم بإذن الله تعالى..

- وعندها صدقت الشيوخ.. وسافرت لأرض الحرمين الشريفين.. ابتدأت بزيارة
المسجد النبوي الشريف ثم جئت مكة عمرها الله.. وحصل ما حصل.. ما رأيك يا
دكتور؟

- أما الرؤيا.. فليست من مفسري الأحلام.. ولا يد من سؤال شيوخنا هنا عنها..
أما عن الشفاء فهو بإذن الله وأمر الله.. والله الشافي المعافي..

مرت شهور ثلاثة.. وإذا بالحاجة إنعام تسير على قدميها ويختفي اللون الأزرق..
وتنتهي الغرغرينا.. كانت تغسل رجلها يومياً بماء زمزم بنية الشفاء.. وكانت مؤمنة
بالشفاء.. وقد شفاها الله.

ملاحظة: رويت هذه القصة لمجموعة أطباء.. فأخبروني بأن حالات مشابهة قد
حصلت في أفغانستان أثناء الجهاد الأفغاني، والبوسنة والهرسك، وكوسوفو، والشيشان..
وسبحان الشافي.

يا صاحب الهم إن الهم منفرج	أبشّر بخير فإن الضارح الله
وإذا ابتليت فثق بالله وارض به	إن الذي يكشف البلى هو الله
الله يُحِبُّ بعد العسر مسرة	لا تجزعن فإن المقدر الله ^(١)

(١) «فصص واقعية».

ادخرتهم ذخراً

وكان أحد الصالحين مبتلى في أولاده، فكلما جاءه ولد وترعرع قليلاً وفرح به خطفه الموت، وتركه حزيناً كسير القلب، ولكن الرجل لشدة إيمانه لا يملك إلا أن يحتسب ويصبر ويقول: لله ما أعطى والله ما أخذ، اللهم أجرني في مصيبي واخلفني خيراً منها، حتى كان الولد الثالث وبعد سنوات مرض الولد واشتد به المرض وأشرف على الموت، والأب إلى جواره تدمع عينه، فأخذته سنة من النوم فرأى في منامه أن القيامة قد قامت، وأن أهوال القيامة قد برزت فرأى الصراط وقد ضرب على متن جهنم واستعد الناس للعبور، ورأى الرجل نفسه فوق الصراط، وأراد أن يمضي فخشي الوقوع فجاءه ولده الأول الذي مات يجري وقال: أنا أسندك يا أبتاه، وبدأ الأب يسير ولكنه خشي أن يقع من الناحية الأخرى فرأى ولده الثاني يأتيه ويمسك بيده من الناحية الثانية.

وفرح الرجل أيما فرح، وبعد أن مضى قليلاً شعر بعطش شديد، فطلب من أحد ولديه أن يسقيه. قال: لا إن أحدثنا إن تركك وقعت في النار فيماذا نفعل. قال أحدهما: يا أبي لو كان أخونا الثالث معنا لسقاك الآن. وتنبه الرجل من نومه مذعوراً بحمد الله على أنه لا يزال على قيد الحياة ولم تكن القيامة بعد، وحانت منه التفاتة نحو ولده المريض بجانبه فإذا هو قد قبض (مات) فصاح: الحمد لله لقد ادخرتك ذخراً وأجرًا وأنت فرطي على الصراط يوم القيامة، وكان موته بردًا وسلامًا على قلبه.



رب لا تدروني فرداً

تزوجت منذ أكثر من سبع سنوات..

الحمد لله كل ما أنشده - من وجهة نظري - وجدته، أنا مستقر في عملي، مستقر في زواجي.. لا أشكو إلا الملل، فأنا وزوجتي لم نرزق بالأبناء، ومن هنا بدأ الملل.. وكثرت زيارة الأطباء.. أعتقد أنني بذلت كل جهدي؛ سافرت للداخل والخارج، عندما أسمع عن طبيب قادم متخصص في العقم.. أحجز عنده موعداً.. التحاليل كثيرة والأدوية كثيرة.. ولكن دون فائدة.. أصبح أكثر حديثنا أنا وزوجتي الطبيب الفلاني..!! ماذا قال..؟! وماذا ستوقع؟!!

التوقعات تستمر لمدة سنة أو سنتين، فمرحلة العلاج طويلة، منهم من أخبرني أن العقم مني، والبعض الآخر قال: إنه من زوجتي، صارت أيامنا مراجعة أطباء وبحث عن حل، أصبح هاجس الطفل يسيطر على مشاعرنا، وعلى الرغم من أنني أحاول ألا أشعر زوجتي بذلك إلا أنها تشعر بما يدور، فالأسئلة كثيرة، وهناك من يسألها:

- ماذا تنتظرين؟

وكان الأمر بيدها.. منهم من ينصحها باسم طبيب في المكان الفلاني.. لقد ذهبت إليه فلانة وأنجبت طفلاً.. وهكذا أصبح مجتمع زوجتي له نصيب كبير من الأسئلة، ولم يقل لنا أحد:

- لماذا لا تتجه إلى الله وتدعوه دعوة صادقة؟!!

سبع سنوات مضت ونحن نلهث وراء الأطباء.. وتركنا الدعاء.. وتركنا التوجه إلى الله.. ذات مساء.. عبرت طريقاً، فإذا بشخص كيف يريد أن يعبر الطريق، أمسكت

بيده.. وعبرت به الجزء الأول من الطريق.. ووقفنا في المنتصف، نتظر خلو الشارع من السيارات.. فدعاني بالتوفيق والصحة.. ووجدها فرصة ليسألني:

- هل أنت متزوج؟

فأجبت:

- نعم..

- ألك أبناء؟

فقلت له:

- لم يقدر الله لي ذلك، منذ سبع سنوات ونحن نتظر الفرج..

عبرنا الطريق.. ولما أردت أن أودعه قال لي:

- يا بني.. جرى لي ما جرى لك، وأخذت أدعو في كل صلاة ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا

وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩]، والحمد لله لي من الولد سبعة، ضغط يدي، وقال:

- لا تنس الدعاء.

ولم أكن أحتاج إلى توصية، فقد وجدت مفقوداً.. أخبرت زوجتي بما حدث لي،

وتجاذبتنا أطراف الحديث.. أين نحن من الدعاء؟ كل شيء بحثنا عنه وجرنا.. وكل

طيب سمعنا به طرقتنا بابه.. فلماذا لا نطرق باب الله؟ وهو أوسع الأبواب وأقربها،

فذكرت زوجتي أن امرأة مسنة قالت لها منذ سنين:

- عليك بالدعاء.

ولكن كما قالت زوجتي:

- كان في ذلك الوقت مواعيد لا حصر لها مع الأطباء.

أصبحت مراجعاتنا للأطباء، مراجعة عادية، دون تلهف أو قلق، مراجعات عادية، نبحث عن علاج محدد فقط.. يكون سبباً من الأسباب.. توجهنا أخيراً إلى الله بقلوبنا.. في الصلوات المكتوبة وفي جوف الليل.. تحرينا أوقات الإجابة، ولم ينب الظن، ولم يرد، بل فتح الله باب الإجابة وحملت زوجتي، ووضعت طفلة، تبارك الله أحسن الخالقين، لم نُخف السرور والفرح.. لكننا الآن ندعو:

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا قَسْرَةً أَصْغَرٍ وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٤٠] (١).



جنت لأسرقه فسرقني

ذُكر أن لصاً تسوّر دار مالك بن دينار، فلم يجد في الدار شيئاً يسرقه، فرآه وهو قائم يصلي فأوجز مالك في صلاته، ثم التفت إلى اللص، وسلم عليه، وقال: يا أخي، تاب الله عليك، دخلت منزلي فلم تجد ما تأخذه، ولا أدعك تخرج بغير فائدة، وقام وأناه بإناء فيه ماء، وقال له: توضأ وصل ركعتين؛ فإنك تخرج بخير مما جئت في طلبه، فقال اللص: نعم وكرامة، وقام وتوضأ، وصلى ركعتين، وقال: يا مالك أئخفُ عليك أن أزيد ركعتين آخرين؟

قال: زد ما قدر الله لك.

فلم يزل اللص يصلي إلى الصبح.

فقال له مالك: انصرف راشداً.

فقال: يا سيدي، عليك أن أقيم عندك هذا اليوم؛ فإنني قد نويت صيامه.

فقال له مالك: أقم ما شئت، فأقام عنده صائماً قائماً، فلما أراد الانصراف.

قال اللص: يا مالك، قد نويت التوبة.

فقال مالك: ذلك بيد الله عز وجل، فتاب اللص وحسنت توبته، وخرج من عنده

قلقيه أحد اللصوص.

فقال له: أظنك وقعت بكنز؟!

فقال: يا أخي، وقعت بمالك بن دينار، جئت لأسرقه فسرقني، وقد ثبت إلى الله

عز وجل، وها أنا ملازم الباب فلا أبرح حتى أنال ما ناله الأحباب.



الزوجة الصالحة

كان يسير بسيارته في شارع الكورنيش كعادته عندما يحتاج إلى الترويح عن نفسه من ضغوط الحياة اليومية.. في الوقت الذي كان ينبعث من مذياع سيارته صوت مطرته المفضلة وهي تشدو: يا فؤادي لا تسأل أين الهوى، كان يحب أم كلثوم لدرجة الجنون، ويطرب لأغانيها لدرجة الهيام! وحين يستمع إليها وهي تصدح بالغناء يجنح خياله إلى فضاءات وردية، أساسها الأحلام وغايتها (اللاشيء).

في العادة لا تنتهي جولة (الترويح عن النفس) هذه قبل المرور على عدد من الجمعيات التجارية، يتخللها ترقيم.. غزل.. معاكسات.. وغيرها من تصرفات الشباب الطائش!! لكن الجولة هذه المرة تبدو غريبة بعض الشيء! إذ لم يكن سليمان يطارد الفتيات من أجل الظفر بواحدة يتسلى بها، وإنما كانت نظراته هذا اليوم تتجه صوب كل رجل تصحبه زوجته وتبدو عليهما أمارات حداثة العهد بالزواج!! حتى تفكيره هذا اليوم ليس ككل يوم كان.. يقول في نفسه كلما رأى رجلاً وزوجته:

- يا سلام.. والله الزواج شيء حلو.. أكيد إنهم الآن مستأنسون.

كانت فكرة الزواج تداعب رأس سليمان منذ فترة، وأصبح الآن يفكر فيه بجدية سبباً وأنه قد تقلد وظيفة محترمة وأصبح له دخل ثابت.

عاد ذلك اليوم إلى المنزل وقابل والدته فطلب منها أن تصحبه إلى غرفته لأمر خاص.

لم تفاجأ الأم بطلب سليمان، هو فعلاً أصبح بحاجة للاستقرار وبناء عش زوجية جميل قبل أن ينزل في طريق موحل في زمن كثرت فيه الفتن والمغريات.

عندما سألته والدته عن شروطه في الزوجة التي يرغبها، قال سليمان:

- أريدها أن تكون ذات دين ومقبولة الشكل، كانت والدته قبل ذلك تقول له: يا سليمان الدين أهم شيء هذه الأيام، وأنا أمك والبنات التي لا تخاف ربها ما فيها خير.
كان سليمان يهز رأسه دليلاً على موافقته على كلام أمه، لكنه لم يكن يعي معنى أن تكون الزوجة (ذات خلق ودين).

لم يكن سليمان شاباً مستقيماً، لكن من يعرفه يعرف أنه شاب معتدل، لا يدخن، لا يصاحب سيء الخلق، لكنه مع ذلك لم يكن بمنأى عن المعاصي!
بعد عدة أشهر من البحث عن زوجة لسليمان، دخلت والدته إليه في غرفته وأخبرته بأنها وجدت الفتاة المناسبة له، وهي طالبة جامعية ذات خلق ودين، لها أنشطة دعوية في الجامعة وفي المناشط النسائية الخيرية، علاوة على ذلك كانت آية في الجمال.

وافق سليمان على الاقتراح بهذه الفتاة، وتم الزفاف، ودخل سليمان القفص الذهبي كما يقولون.. وبدأ حياة جديدة طلق بها حياة (القرف) كما كان يقول لي قبل زواجه..
ودخل حياة الهناء كما كان يتصور!

بدأت تتضح معالم التغيير في سليمان وفي حياته منذ أول يوم في حياته الجديدة.
في ليلة الدخلة وبينما كان يغط في نوم عميق - وما أثقل نومه - شعر بيد ناعمة لم يعهدها تهمز كتفه: سليمان، سليمان، هيا قم لصلاة الفجر، المؤذن أذن منذ قليل.. قال سليمان لنفسه:

- ما هذه البلوى؟ أخشى أن نكون قد بدأنا النكد من أول ليلة.

قام سليمان إلى الصلاة بدافع الحياء من زوجته (المستقيمة)، فقد خشي أن تأخذ عنه فكرة سيئة منذ أول يوم في حياته معها، لم يكن سليمان يقصر في صلاة الفجر، لكنه

لم يكن يصلّيها في وقتها مع الجماعة وإنما يؤخرها حتى يحصل له الاكتفاء من النوم الذي لم يكتف منه يوماً ما!

توضاً سليمان وذهب للصلاة في المسجد، وأحس وهو في الطريق بعالم غريب! فهو لم يصل الفجر في جماعة منذ زمن طويل! أعجبه الهدوء والصمت، وهو في الطريق سأل نفسه: أين أنا من هذه الفريضة؟!

أسئلة كثيرة تراكمت في رأسه، وكان كمن صحا لثوه من سبات طويل لا يضاويه إلا سبات أهل الكهف في كهفهم.

لسليمان صديق مقرب منه، كانا يعرفان عن بعضهما كل صغيرة وكبيرة، وهذا ما تعاهدا عليه منذ الصغر، لكنهما انقطعا عن بعضهما بعد زواج سليمان بسبب سفره للعمل في مدينة أخرى، وبعد عام ونصف التقيا وما إن رأيا بعضهما حتى هاله ما حدث لسليمان، فلا المظهر مظهر سليمان القديم، ولا المخبر كذلك، تحدث سليمان إلى صديقه عن نعمة الله عليه بهذه الزوجة التي استطاعت أن تقلب حياته رأساً على عقب.

فبعد أن كان سادراً في غيه لا يدري ما غايته في الحياة وكأنه عضو زائد فيها، أصبح يشعر بقيمته في بيته وعند أهله ووسط مجتمعه.

لقد أصبح يكنى سليمان بـ(أبو إبراهيم)، وهو اليوم إمام مسجد في المدينة التي يعمل بها، وله نشاطات دعوية في هذه المدينة.

هذه هي قصته مع زوجته المستقيمة التي جعلته شيئاً آخر بعد أن لم يكن شيئاً.. قال رسول الله ﷺ: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك». صدق رسول الله ﷺ.

الرجل على دين خليله

يقول التائب: كنت أتمايل طرباً، وأترنح يمناً ويسرة، وأصرخ بكل صوتي وأنا أتناول مع (الشلة) الكأس تلو الكأس، وأستمع إلى صوت (مايكل جاكسون) في ذلك المكان الموبوء، المليء بالشياطين، الذي يسمونه (الديسكو).

كل ذلك في بلد عربي، أهرب إليه كلما شجعني صديق أو رفيق، فأصرف فيه مالي وصحتي، وأبتعد عن أولادي وأهلي، وأرتكب أعمالاً عندما أتذكرها ترتعد فرائصي، ويتملكني شعور بالحزن والأسى، لكن تأثير الشيطان عليّ كان أكبر من شعوري بالندم والتعب.

استمرت هذه الحال، وانطلق بي هوى النفس إلى أبعد من ذلك البلد العربي، وأصبحت من عشاق أكثر من عاصمة أوروبية، وهناك أجد الفجور بشكل مكشوف وسهل ومرن.

وفي يوم من أيام أواخر شهر شعبان أشار عليّ أحد الأصدقاء بأن نساقر إلى (بانكوك) وقد عرض عليّ تذكرة مجانية، وإقامة مجانية أيضاً، ففرحت بذلك العرض، وحزمت حقائبي وغادرنا إلى (بانكوك) حيث عشت فيها انحلالاً لم أعشه طوال حياتي.

وفي ليلة جمراء اجتمعت أنا وصديقي في أحد أماكن الفجور، وفقدنا في تلك الليلة عقولنا، حتى خرجنا ونحن نترنح، وفي طريقنا إلى الفندق الذي نسكن فيه أصيب صديقي بحالة إعياء شديدة، ولم أكن في حالة عقلية تسمح لي بمساعدته، لكنني كنت أغالب نفسي، فأوقفت سيارة أجرة حملتني إلى الفندق.

وفي الفندق، استدعي الطبيب على عجل، وأثناءها كان صديقي يتقيأ دماً، فأفقت من حالتي الرثة، وجاء الطبيب ونقل صديقي إلى المستشفى، وبعد ثلاثة أيام من العلاج

المركز عدنا إلى أهلينا وحالة صديقي الصحية تزداد سوءاً، وبعد يوم من وصولنا نقل إلى المستشفى، ولم يبق على دخول رمضان غير أربعة أيام.

وفي ذات مساء ذهبت لزيارة صديقي في المستشفى، وقبل أن أصل إلى غرفته لاحظت حركة غريبة، والقسم الذي فيه صديقي (مقلوب) على رأسه، وقفت على الباب فإذا بصراخ وعويل.

لقد مات صاحبي لتوه بعد نزيف داخلي عنيف، فبكيت، وخرجت من المستشفى، وأنا أتخيل أنني أنا ذلك الإنسان الذي ضاعت حياته وانتهت في غمضة عين، وشهقت بالبكاء وأنا أتوب إلى الله، وأنا أستقبل رمضان بالعبادة، والاعتكاف، والقيام، وقراءة القرآن، وقد خرجت من حياة الفسق والمجون إلى حياة شعرت فيها بالأمن والأمان والاطمئنان والاستقرار، وقد كنت بعيداً عن ذلك أستمري المجون والفجور، حتى قضى صاحبي نحبه أمامي، فأسال الله أن يتوب علي^(١).

أخي الحبيب: احرص على صحة الصالحين الذين يأخذون بيدك إلى مرضاة الله جَزَوْعَلَا.. والذين يشفعون فيك يوم القيامة بعد أن يأذن لهم الحق جَزَوْعَلَا.

أما سمعت قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»^(٢). واحذر صحة الأشرار فهم يقودونك إلى جهنم وبئس القرار.



(١) «العائدون إلى الله».

(٢) حسن رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

كلمتان عظيمتان

قال الإمام أحمد: كلمتان نفعني الله بهما في المحنة:

الأولى - لرجلٍ حُبس في شرب الخمر، فقال: يا أحمد، اثبت، فإنك تُجلد في السنة، وأنا جُلدت في الخمر مرارًا، وقد صبرت. ﴿إِنْ كُفُّوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَرَجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [التوبة: ١٠٤]، ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الزُّمَرُ: ٦٠].

الثانية - لأعرابيٍّ قال للإمام أحمد، والإمام أحمد قد أخذ إلى الحبس، وهو مقيدٌ بالسلاسل: يا أحمد، اصبر، فإننا نقتل من هنا، وتدخل الجنة من هنا. ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١].



حبسه الله في جسده

إنه أحمد بن أبي دؤاد الإيادي المعتزلي قاضي المعتصم، الذي جر البلاد إلى محنة خلق القرءان، وبسببه أهين علماء الأمة، وعذبوا وسجنوا وقتلوا.

تكلم في أحمد بن حنبل وعاب معتقده، وبسببه قتل أحمد بن نصر الخزاعي، وسجن الإمام أحمد وعذب بالسياط، فدعا عليه الإمام أحمد، فحبسه الله في جسده كما حبس الإمام، ودخل عليه وعاده عبد العزيز الكناني، وقال له:
- لم آتاك عاقداً، بل لأحمد الله أن سجنك في جلدك.

قال ابن كثير: ابتلاه الله بالفالج - وهو شلل يصيب نصف البدن - قبل موته بأربع سنوات حتى بقي طريح الفراش، لا يستطيع أن يحك شيئاً من جسده، وتحرم لذة الطعام والشراب والنكاح وغير ذلك.

جعل الله نصف جسده لو سقطت عليه ذبابة فكأنها نهشته السباع، والنصف الآخر لو نهشته السباع ما أحس بها!! وقد دخل عليه بعضهم فقال له:

- والله ما جئتك عاقداً إنما جئتك لأعزبك في نفسك، وأحمد الله الذي سجنك في جسدي الذي هو أشد عليك عقوبة من كل سجن.

ولما مات لم يحتفل به أحد، ولم يلتفت إليه أحد، وما شيعه إلا قليل من أعوان السلطان، جزاءً وفاقاً.

لكن لما مات أحمد بن حنبل، كانت جنازته أكبر جنازة في تاريخ المسلمين.



بعد رحلة الإدمان.. مات ساجداً للرحمن

شاب كان مسرفاً على نفسه بالمعاصي والآثام.. ومن كثرة معاصيه أنه كان لا يتوانى عن فعل أي معصية.. يتعاطى المخدرات ويفعل الفواحش.. بل وصل الأمر إلى أنه كان يضرب أمه وأباه..

فلما استحال العشرة بينه وبين أسرته جعلوا له غرفة في السطح يعيش فيها وحده بعيداً عنهم.

وفي يوم من الأيام يتعاهد أربعة من الإخوة الصالحين أن يأتوا إلى هذا الشاب العاصي لينصحوه.. فصعدوا إلى غرفته فوجدوه سكراناً فاقد العقل فجلسوا معه وحاولوا أن يكلموه لكنه لا يشعر بهم.. جلسوا معه حتى أفاق قليلاً ثم بدأوا يذكرونه برحمة الله وبالجنة والنار فإذا به يبكي ويقول: والله ما سمعت من قبل هذا الكلام فأريد أن آتي معكم.

فذهبوا به معهم وكانوا مسافرين فسافروا خارج المدينة التي هو فيها ونزلوا في أحد المساجد وكان هذا الشاب معهم مُعلنًا توبته إلى الله لكنه كان ما يزال يعاني من أثر المخدرات حتى أنه صاح بهم في الليل: قوموا فاربطوني بالحبل فإنني أخشى أن أخرج لأبحث عن المخدرات.

قالوا له: هيا نذهب بك إلى المستشفى، قال: لا، بل اربطوني.

فربطوه ربطاً شديداً ومع ذلك استطاع أن يتخلص من ذلك القيد وجلس يبكي بجوارهم من شدة الألم.

واستمر على تلك الحالة خمسة عشر يوماً وهو يعاني من ألم التخلص من المخدرات.. لكنه صادق في توبته.. نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً وبعد خمسة عشر يوماً أراحه الله من آثارها.

وذهبوا به إلى المستشفى فلما أجرى الطبيب بعض التحاليل وإذا به يقول: لا يمكن أن يكون هذا الرجل قد تعاطى مخدرات من قبل.

ومكث هذا الشاب ثلاثة أشهر غائبًا عن أهله.. أما أهله فلم يسألوا عنه لأنهم يتسوا منه فظنوا أنه قبض عليه أو أنه مات في حادث ليستريحوا من أذاه.

وبعد ثلاثة أشهر يذهب إلى منزل أسرته ويقرع الباب فتفتح أمه لترى ابنها الذي اختفى منذ ثلاثة أشهر.. تراه وقد تغير وجهه وزادت هيئته بهاءً وجمالاً ووقاراً فأقبل على أمه ليعانقها ويقبل رأسها ويكي ويطلب منها أن تسامحه فقالت أمه: سامحتك يا بني.

فقال لها: يا أماه أشتي أن أكل طعاماً من صنع يديك.. فقامت الأم تصنع له طعاماً.. فقام وكبر للصلاة وقرأ وركع ورفع وسجد وأطال السجود.. وجاءت أمه بالطعام لترى ولدها ساجداً فأخذت تبكي بكاءً شديداً فرحاً مهادية ولدها لكن ابنها أطال السجود ثم أطال السجود.. فنادت عليه أمه فلم يجبها.. حرّكته فإذا به قد مات ساجداً..

دخل جيرانه ودخل أهله ليروا هذا الشاب الذي كان في غاية الإجرام والفساد.. وإذا به يموت ساجداً..

فتشوا جيبه وأخرجوا أوراقه وإذا فيها وصية مكتوبة.

أتدرون ما هي وصيته؟.. كانت وصيته أنه إذا مات فعلى أمه أن تخط له الأكفان وأن يحمل جنازته شباب الحي الذين كان يعرفهم قبل الالتزام حتى يتوبوا إلى الله وأن يكون الذي يدفنه هو أبوه^(١).

(١) «ساعة وساعة» ص (٣٢٠، ٣٢١).

هناك صنف من الناس كان مسرف على نفسه في المعاصي والموبقات فعلوا أشنع الجرائم من قتل وسفك للدماء وسرقة ورياء وزنا ومخدرات ونحو ذلك. تجردوا من دينهم وأدميتهم وفعلوا من الجرائم ما تقشعر من سماعها الجلود وتطيش من هولها العقول، فحكم عليهم بالإعدام ومنهم من حكم عليه بالسجن جزاء جرائمهم، فلما أيقنوا بالموت وأحسوا باقتراب الأجل تابوا وأنابوا إلى الله وفاقوا من غيرهم فكان من رحمة الله بهم أن حكم عليهم بالإعدام ليفيقوا من غفلتهم، ويتبهاوا من رقتهم ففزعوا ينفضون غبار المعاصي عن أبدانهم ويزيلوا الغشاوة من على أبصارهم ويسكبوا العبرات على ما جنت أيديهم من الموبقات فسبحان مقدر الأقدار. ونحن نذكر قصص بعض هؤلاء وكيف تداركهم الله برحمته.

قال الشيخ أحمد فريد حفظه الله:

جمع القدر بين هؤلاء الشباب الذين وقعوا في هذه الجرائم وبين أحد إخواننا الكرام وهو أخونا أبو عبد الرحمن حيث قدر له أن يسجن في عنبر الإعدام فإذا به يتعرف على هؤلاء الشباب الذين يلبسون البدلة الحمراء بدلة الإعدام ففتح لهم قلبه وأخذ يستمع إلى قصصهم وما جنت أيديهم فأخذ يدعوهم إلى التوبة ويفتح لهم باب الرجاء ويحدثهم عن رحمة الله وذكر لهم قصة القاتل مائة نفس من بني إسرائيل لما تاب قبله الله فإذا بالنور يتسرب إلى قلوبهم فتحيا قلوبهم بعد أن أوشكت على الموت فأخذوا يتسابقون إلى طاعة الله فتسابقوا في حفظ القرءان والقيام والصيام، والذكر والاستغفار.. فما عرفوا الحياة إلا في هذا المكان، وقد كانوا من قبل يعيشون حياة الأنعام^(١).

(١) «فصص الثائين» د/ أحمد فريد.

عجائب الرحمة بقاتل أمه

قال أبو عبد الرحمن: كانت بداية القصة، وأنا أتصفح جريدة من الجرائد اليومية، حيث قرأت خبر حادثة شنيعة تحت عنوان: «جريمة فظيعة هزت الإسكندرية».

شاب يقتل أمه لأنها رفضت زواجه من إسرائيلية: وقعت الجريمة في دائرة قسم محرم بك، وشاءت الأقدار أن أنزل في هذه الآونة معتقلاً سياسياً في هذا القسم لبضعة أيام، والتقيت بهذا الشاب فوجدته شاباً نحيفاً طويل القامة، هادئ الطبع، وكانت زنزانتي بجوار زنزانته، وكان يمرّ عليّ عند ذهابه للوضوء، فلفت نظره أنني رجل ملتحي، وأقبل إليّ متلهفًا، وكأنه وجد ضالته، وقال لي: يا شيخ إنني ارتكبت جريمة كبيرة، إنني قتلت أمي فهل لي من توبة، فقلت له: يا أخي إن كان ذنبك عظيمًا فعفو الله عَزَّوَجَلَّ أعظم، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿قُلْ يَعْزِمُ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزُّمَرُ: ٥٣].

فتهلل وجهه بالفرح، فقلت له: يا أخي تب إلى الله، وأكثر من الاستغفار والدعاء لأملك، عسى الله أن يعفو عنها بدعائك فتعفو عنك يوم القيامة، فيعفو الله لك.. واقترقنا على ذلك، وذهبت إلى معتقلي، وكنت أسكن في عنبر الإعدام، ومرت الأيام تلو الأيام.. وفي ذات يوم رأيت ذلك الشاب داخلًا عليّ العنبر، وقد حكم عليه بالإعدام، فاعتنقته وقلت له: هل تذكرني؟ فقال: نعم أذكرك جيدًا، فأنت الذي فتح الله عليّ بك أبواب الرحمة، وأبشرك بأنني منذ تركتك وأنا مواظب على الصلاة والذكر والدعاء لأمي، عسى الله أن يغفر لي ويرحمي.. وقد كان كما قال، فرأيته شغوفًا بذكر الله عَزَّوَجَلَّ، كالجائع المحروم الذي يتوق إلى الطعام فأنته الأطعمة بعد حرمان طويل، كان مواظبًا على قراءة القرآن، وكان حريصًا على ختمه كل سبعة أيام، وما يعلم بشيء من الخير أمر به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا وكان من المسارعين إليه، وكان حريصًا على أن يكون سببًا في الحياة الطيبة

لأمه في الآخرة، كما كان سبباً لانقطاع الحياة عنها في الدنيا، علم ذات يوم أن حفظ القرآن الكريم كاملاً شفع في عشرة من أهله يوم القيامة، وكسي والداه حُلَّة الكرامة، فيكرمان على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، فقال لي: يا شيخ أحق هذا؟ قلت له: حق ورب الكعبة فاجتهد، وتوكل على الله، ولا تيأس من رحمة أرحم الراحمين.

فقال لي: وهل من الممكن أن أصل إلى هذه الدرجة؟! فقلت له: ولم لا.. والله عَزَّوَجَلَّ أكرم الأكرمين ألم يَمُنَّ على الصحابة فأخرجهم من ظلمات الشرك وهو أعظم من القتل - إلى نور الإيمان - وهو أكبر الأعمال - بل وجعلهم أصحاباً لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بل وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، فأخرج بهم العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.. فبكى وقال: ذنبي كبير يا شيخ.. ذنبي كبير فأنأ لم أقتل جازاً، ولا صاحباً، ولا صديقاً، ولم أقتل إنساناً عادياً: «أنا قتلت أمي»، وانهمرت عيناه بالبكاء.

فقلت له: أخي أبشر بعفو الله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْعُفُورَةَ﴾ [التجن: ٣٢].

وماذا يساوي ذنبك في عفو أرحم الراحمين.. و اعلم أخي أن الشيطان يوم القيامة يتناول بعنقه رجاء أن تصيبه رحمة الله، أتدري لماذا؟!!

يا أخي إن الله عَزَّوَجَلَّ خلق الرحمة مائة رحمة، أنزل منها واحدة في الدنيا، وأدخر منها تسعة وتسعين إلى يوم القيامة.

تخيل يا أخي الحبيب برحمة واحدة يتراحم الناس فيما بينهم.. برحمة واحدة ترفع الفرس حافرهما عن ولدها مخافة أن تصيبه.. برحمة واحدة يرزق الله الكافر ويسبغ عليه الكثير من النعم، فيطعمه، ويسقيه، ويكسوه، كل ذلك برحمة واحدة، فتخيل يا أخي الحبيب كيف تكون رحمة الله في يوم يتناول الشيطان بعنقه طمعا في هذه الرحمة ترى ما الذي دعى الشيطان إلى أن يتناول بعنقه لتصيبه الرحمة، أتدري لماذا؟! لأنه رأى عجبا،

رأى ذنوبًا كبيرة عظيمة يغفرها الله ﷻ ولا يبالي، وما يدريك لعلك يا حبيبي أن تكون عجيبة من عجائب الرحمة، تجعل الشيطان يتناول بعثته راجيًا للرحمة عندما يراك وأنت تساق إلى الجنة بغير حساب ولا عذاب.

وسبحان الله! ما إن سمع هذه الكلمات إلا ورأيت النور يشرق في جبينه، ورأيت الفرح والسرور مزينًا لوجهه، فرحًا بالله ﷻ، فرحًا بعفو الله، فرحًا بعجائب الرحمة، وساعتها عاهدني أن يحفظ القرآن حتى يختمه، وصدق في وعده فكان يحفظ كل يوم ربعًا من القرآن أو ربعين. وكان يسمعها غيبًا، وفتح الله عليه فأخذ يقرأ في كتب العلم والفقه والعقيدة والسيرة، حتى أنعم الله عليه بقسط من العلم، واستمر على هذه الحال، وكان دومًا في ازدياد والحمد لله رب العالمين، حتى حفظ القرآن كاملاً وكان يقوم به الليل كل أربعة أو خمسة أيام، وأحيانًا كان يقرأ في الليل بألف آية، وصام شهرين متتابعين كفارة القتل ثم بعد ذلك كان يصوم يومًا ويفطر يومًا فكان صومًا قوامًا، حتى تمنيت أن أكون على مثل حاله في العبادة والصبر عليها، وكان كثيرًا ما يقول لي: كم أنا في شوق إلى ربي ﷻ، كفى بالموت نجفة للمؤمن.

يا شيخ! إن أعظم يوم في حياتي هو ذلك اليوم الذي ينفذ عليّ فيه حكم الإعدام؛ لأنه يوم اللقاء مع الحبيب، يوم الرجوع إلى الغفور الشكور، الذي يغفر الكثير من الزلل، ويقبل القليل من العمل.

قللت له: جعلك الله من الصادقين فأبشر يا أخي برحمة الله ﷻ، وفي آخر يوم له في الحياة قال لي: أنا أشعر بأنني سوف يفرج عني من سجن الدنيا هذه الأيام، فيماذا تنصحنني أن أفعله لكي أفوز في هذا اليوم بأفضل الأعمال، وأعظم الأجر، قللت له: احرص على قول لا إله إلا الله، فإنها أفضل الذكر، وأعظم في الميزان من السموات والأرض، فقال لي: ما رأيك في أن أكثر من قول لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين؟ فتبسمت

وقلت له: لقد اخترت دعاء عجباً فإن أوله تهليل وأوسطه تسييح وآخره اعتراف بالذنب فأكثر منه وأرجو من الله أن يرحمك به وأن يتقبله منك برحمته ولا تنس أن تصلي ركعتين سنة القتل ولا تفتر عن الذكر والدعاء.. وكان عنده شيء من الطعام الطيب فاستأذن وتركني مسرعاً وقال لي: أريد أن أفعل شيئاً قبل فوات الأوان فأخذ الطعام وتصدق به على إخوانه فقلت له: كم بقي من الطعام يا فلان، فقال لي: بقي كله إن شاء الله.

ثم فارقتني وهو يقول: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين». وفي عينه نظرات الوداع، وكأنه كان يشعر بما يتظره من أمر الله ﷻ.. وبعد أن مضى الليل وبرق الفجر، ورفع الأذان مجلجلاً في أرجاء الكون فاستيقظت لصلاة الفجر: واستيقظ هو وكل من حولنا، وحانت ساعة الصفر فقطع سكون الصوت صوت خطوات كثيرة مسرعة تتجه نحو حجرة صاحبي ففتحوا عليه الباب في خفة الطيور فوجدوه قد فرغ من صلاته. ممسكاً بكتاب ربه، يرتل آيات من القرآن فكان أول قول له حين رآهم لا إله إلا الله، إنا لله وإنا إليه راجعون، لا إله إلا الله، فقيدوه وأخرجوه، وخرج معهم في سكينة وفرح ووقار، قد ألهمه الله الصبر والثبات في لحظة لا يثبت فيها إلا المؤمنون، خرج وهو يردد لا إله إلا الله، وسلم على إخوانه واحداً بعد الآخر وهم يرددون السلام ويقولون: لا إله إلا الله، ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة، فانطلقوا به إلى المكاتب، ومكث هناك ساعة، قال لنا من كان معه إنه توضأ فيها وصلى، ومكث يذكر الله ﷻ، وقد حاول بعض الضباط أن يعطيه طعاماً، فقال له: إني صائم والحمد لله، فقد كان يصوم يوماً ويفطر يوماً. وكان من فضل الله ﷻ أن جاءه تنفيذ الحكم وهو صائم فسبحان أرحم الراحمين، وفي تمام الساعة السابعة صباحاً مرّ من وراء المبنى الذي نسكن فيه متجهاً إلى حجرة الإعدام فرأيتته ورأني فقال لي: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، لا إله إلا الله.

فقلت له: أيشر يا أخي الحبيب بعجائب رحمة الله: ﴿قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ وَرَحْمَتُهُ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يُونُس: ٥٨].

ثم انطلقوا به إلى حجرة الإعدام ونوافذ حجرات أصحابه تطل على هذه الحجرة، بحيث يرون عن قرب معظم مراسم الإعدام، ويرونه في آخر لحظات عمره، قبل الدخول للتنفيذ، فأوصاهم بدوام الطاعة والذكر والثبات على الإسلام حتى الممات وأوصى أخا له بكتابة أوراق صغيرة، يأمر بقراءة سوريس، والدخان، والرحمن، والواقعة، والحشر، وتبارك.. وأن يوزع تلك الوريقات على كل من في المكان وأمرهم أن يقرأوها بترتيل وتدبير؛ لأنه كان يعلم أن الدال على الخير كفاعله، ثم استدار إلى أحب إخوانه إليه وقال: لا تنس قيام الليل يا فلان، ثم سجد شكراً لله ﷻ بعدها لقنه الشيخ، ثم هرول إلى الحبل، وما هي إلا لحظات حتى قاضت روحه إلى بارئها.

تغمده الله ﷻ بواسع رحمته.. وكان من فضل الله عليه أنه رأى قبل موته بأيام أمه في رؤيا وهي تقول له: يا بني اعلم أنني راضية عنك.

وهذه من المبشرات له برحمة الله ﷻ^(١).



(١) «فصص الثائين».

قاتل صديقه

قال أبو عبد الرحمن: اسمه محمود، شاب أبيض الوجه، وسيم، مهذب الحديث، رقيق الكلام، من يراه لا يصدق أنه محكوم عليه بالإعدام لشدة أديبه وحيائه، جمع الشيطان بينه وبين شاب بصداقة لكنها لم تكن على بصيرة الإيمان، بل كانت على طريق الخزي والذل والهوان، كانت صداقة في سبيل الشيطان.

تشاجر يوماً هو وصديقه فضربه صديقه فجرحه جرحاً شديداً، ولما برأ أراد أن ينتقم لنفسه يأخذ بثأره، فترصد لصديقه فقتله، وكانت هذه نهاية الصداقة، التي لم تكن على تقوى الله عز وجل.

لقد كان متعطشاً للعلم، يريد أن يعرف ربه، وحقه عليه، وكيف السبيل إلى التوبة الصادقة، أسئلة كثيرة كان يلقيها عليّ كل يوم، فلا يمر عليه يوم حتى يتعلم فيه شيئاً جديداً.

قال لي ذات يوم: أنا أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم حباً شديداً، وأنا أريد أن أقرأ عنه، وأتعلم سيرته، وأعرف أخباره.

فكنت أحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان إذا سمع سيرته بكى، فأعطيته كتاب «الرحيق المختوم»، وهو كتاب في السيرة فقرأه مرة بعد مرة وكان يتأثر جداً بتلك القراءة، وكانت علامات الفرح الممزوج بالحزن تبدو في وجهه، فرح بعثوره على نفسه بعد الضياع، وحزن على ما ضاع من العمر في سبيل الشهوات والملذات، جاءني ذات يوم وهو فرح مسرور فقال لي: إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام، فقد كنت أقف في الصحراء، وكان يقبل عليّ بوجهه ويتقدم نحوي ويتسمم، ففرحت له بتلك الرؤيا.

وأراد أن يتعلم التجويد لتنفيذ أمر الله القائل: ﴿ وَرَبِّلِ الْقُرْآنِ تَرْتِيلاً ﴾ [التكوير: ٤].

فعلمته، وكان شديد الحرص على أن يتعلم، حتى وصل إلى درجة طيبة.

وذات يوم جاءني مرة أخرى بفرح شديد من الأول ثم قال لي: لقد رأيت الليلة في المنام أنك تجلس معي على سرير عالٍ، ومعك مصحف وأنت تعلمني القرآن، فدخل علينا رجلٌ كثر اللحية، أبيض الوجه، عظيم الجسم، وبجانبه رجلان، وقع في قلبي أنه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتقدم نحوك فسلم عليك بشدة ثم سَلَّمَ عليّ، فدعوت الله أن تصدق رؤياه، وأن يكون حقاً رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هل يشقى رجل سلم عليه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلت له: يا أخي إن كان الأمر كذلك فيجب عليك أن تشكر الله بحسن الثبات على دينه حتى الممات؛ لعلك تسلم يوم القيامة من عذاب الله، فقال لي: أريد أن أصوم كفارة القتل.

فقلت له: صُمْ على بركة الله، فصام شهرين متتابعين، وكان لا يزيده الصيام إلا قوة في الدين، وزيادة في الإيمان.

والنوم في عنبر الإعدام (الحياة) عزيز لأنهم يتظنون الموت في كل لحظة، فمن أيسر العبادات عليهم في هذا العنبر هو قيام الليل، بتوفيق الله وتيسيره لهم، فإذا أردت أن تنظر إلى محمود في ساعة من ساعات الليل وجدته، إما قائماً أو راکعاً أو ساجداً، أو قارئاً للقرآن ولذا فإنه يقول: أنا لست في سجن بل أنا في روضة من رياض الجنة^(١).

أسأل الله أن يدخلنا جميعاً الدرجات العلى من الجنة..



التائب صاحب المقامات

قال أبو عبد الرحمن: هو شاب من شباب هذا العصر المترفين، كان مغرمًا بأفلام هوليوود وسهرات الديسكو ولعب البلياردو، يحب المغامرة، جاءه صاحب له وقال: إن رجلاً من رجال الأعمال أخذ مني مبلغ مائة ألف جنيه، وأريد أن تأتي معي لنهدهه ونضغط عليه حتى يؤدي إليَّ حقي، فهورول معه، ولأنه كان شابًا طائشًا فقد انقلب التهديد إلى تنفيذ، فقتل رجل الأعمال وسائقه، وقبض عليه، وحكم عليه بالإعدام، وكانت الدنيا تجري في دمه، فكان يعذب بفقدانها، وكانت الطاعة ثقيلة عليه.

ثم بفضل الله عَزَّوَجَلَّ تغير حاله تمامًا، وصارت قرعة عينه في الصلاة، فلقد كان يطيل الصلاة من الليل ويكي حتى يُسمع نشيجه من بعيد، وحببت إليه الخلوة، وكان له ورد من القرآن لا يتخلف عنه، وكان ورده في الصلاة خلاف ورده خارج الصلاة، حتى اشتاق إلى الله عَزَّوَجَلَّ شوقًا شديدًا، وكان تنفيذ الإعدام يومي الأحد والأربعاء من كل أسبوع في بداية الأمر، ثم زادت أيام التنفيذ بعد ذلك.

فكان يقف في يوم الأحد والأربعاء يقول: فرجك يا رب، ثم يحزن إذا لم يكن هو المقصود، وكان يقول لي: لقد ازداد شوقي إلى ربي، وأخشى أن يقتلني الشوق فكنت أصبره وأقول له: اعلم أن كل يوم تعيشه فهو هدية لك من الله عَزَّوَجَلَّ فإن كنت محسنًا زاد إحسانك وإن كنت مسيئًا تبت إليه فكان يتصبر قليلًا، وكان أحيانًا يقول: اللهم عَجِّل بقبضي إليك يا أرحم الراحمين.

وفي الأسبوع الأخير رأى رؤيا فقال لي: رأيت كأنني أسحب ثعبانًا ضخمًا وطوله خيالي، واستمر سحبه أكثر من عشر دقائق، فلما وصلت إلى رأسه وجدته في الرمي الأخير، فرميت به فمات.

فقلت له: يا أخي يبدو أن هذا الثعبان عدوك من عملك السيئ، ولعل الله عز وجل سلطك عليه بالعمل لتقتله فلا يضررك إن شاء الله فلما سمع ذلك فرح جداً.

وفي اليوم الموعد الذي كان ينتظره بالأشواق وبعد صلاة الفجر وهو يقول أذكار الصباح وقف على باب زنزانه ينظر من شراسته ينتظر الفرج.

وقد جاءه الفرج فناداهم قبل أن يصلوا إليه فقال: تعالوا أنا هنا أنتظركم منذ زمن، ثم استدار لهم وجعل يديه خلف ظهره ليقيدوه، وخرج معهم يتنفس الصعداء، ولسان حاله يقول: ﴿سَجَعَلُ اللَّهُ بَعْدَ صُرَيْمٍ﴾ [التخلاق: ٧].

وسلم على إخوانه فرداً فرداً قائلاً: السلام عليك يا فلان. لا إله إلا الله، وظل يردد ها وصلى ركعتين سنة القتل ثم لقنه الملقن.

وظل يردد «لا إله إلا الله»، وهو يتقدم في ثبات نحو حجرة الإعدام. ومن كان آخر كلامه «لا إله إلا الله» دخل الجنة^(١).



(١) «فصص الثائين».

الهجرة والتدبير الإلهي

الحمد لله خلق فسوى وقدر فهدى، وأنزل الشرع وقدر له البقاء، وبعث نبيه بالهدى ودين الحق، وهدى له رجالاً استجابوا لدعوة الحق فقاموا معه خير قيام حتى نشر الله الإسلام في ربوع الأرض.

والله القادر هياً لدينه الكون وأعداه لاستقباله أتم إعداد، فكان من ذلك حرس طريق الوحي من كل مسترق للسمع: ﴿وَأَنَا لَمَنَّا أَلْسَمَاءُ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتِمَتٍ حَرَسًا شَدِيدًا وَشِهَابًا ۝ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ [البقرة: ٨٠-٩]، فقدر الله سبحانه لنبيه الكريم ودينه القويم بلدًا لا تغلق أبوابها عن داخل أو خارج - وهي مكة - ليبدأ بدعوته فيها، فانتشر خبر دعوته إلى الناس في الآفاق، فسمعوا به، ولم يستطع من كره دعوته من عظماء مكة ورؤسائهم أن يغلقوا أبواب بلدهم ليمنعوا دعوته من الانتشار، وكان سبب تقدير رب العالمين أن جعلها بلدًا غير ذي زرع عند بيته المحرم، فأما غياب الزرع فجعلهم يألفون رحلة الشتاء والصيف، وأما البيت الحرام فجعل أفئدة من الناس تهوي إليه. فبعد أن بلغت الدعوة بمكة مبلغها وتكونت من المؤمنين زمرة طيبة قدر رب العالمين لنبيه عند العقبة من الخزرج من أهل المدينة رجالاً سمعوا منه دعوة فاستجابوا لها، وقالوا: إنه النبي المبعوث الذي بشرت به اليهود، فلا يسبقكم إلى اتباعه، وذلك ما ذكره رب العزة في قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كُنُوزٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

فكان الخزرج بل الأوس عرفوا خبر النبي الخاتم من اليهود، فكان تقدير رب العالمين بوجود اليهود في المدينة بجوار الأوس والخزرج قد هياً أهل المدينة للترحيب بدين الإسلام ونبي الإسلام، وكان من أسباب ذلك وجود اليهود، فقدر الله للناس أن

عرفوا الإسلام منهم، بينما كفروا هم ليستحقوا بذلك العذاب، وينشر الله دينه، ويجعل المدينة حرزاً للإسلام والمسلمين.

ومن التدبير الإلهي الذي هيا الله به المدينة لهجرة نبيه الكريم أن كان العداء بين الأوس والخزرج طويلاً، فنشأ من ذلك العداء أمران هاما نَجْعلا خير مهد للإسلام بعد مكة، فكانت دار الهجرة:

الأمر الأول - أن القوم كانوا قد تعلموا فنون الحرب، وكانوا قد جمعوا الشجاعة والإقدام، فلما جاء الإسلام ونايذهم الناس العداء قال قائلهم يوم بدر: إنا لَصَبْرٌ في الحرب صُدُق عند اللقاء، لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله، فكانوا لا يهابون الحرب ولا يخافون السيوف، وكانوا شجعاناً فرساناً، نصر الله بهم دينه، ورفع بهم لواءه.

الأمر الثاني - أن القوم كانت بينهم مصاهرات، فإذا وقعت الحرب بينهم اتقوا بسيفهم وبينهم الأرحام والقربات، فسفكت الدماء بأيديهم على ما بينهم من قرابات ومصاهرات فاشتاقوا السلم يجمعهم فيكونوا أسلحتهم، حتى أن البعض منهم قدم عبد الله بن أبي ابن سلول ليكون ملكاً عليهم؛ لأنه استطاع أن يجنب طرفاً من قومه الدخول في أحد هذه الحروب!! فكانوا يقولون للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أول لقاء لهم به عند العقبة: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليه فدعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجنبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك.

ومن التدبير الإلهي الذي أهل الله به المدينة لتكون دار هجرة لنبيه الكريم كانت المدينة داراً فيها زرع يصبر سكانها على حصارها إذا حوصروا، كما وقع ذلك في

«أُخِذَ»، وفي «الأحزاب»، بينما مكة لا تستطيع الصبر؛ لأنها غير ذات زرع، فلا تصبر على حصار.

ولقد سبق ذلك تديير إلهي طويل في طريق الهجرة، حيث أخذ الله أبصار المحاصرين، فلم يروا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو خارج حتى وضع التراب على رءوسهم، ولما دخل إلى الغار وأخذ المشركون يبحثون حتى وصلوا إلى الغار، ولكن أخذ الله أبصارهم، فقال أبو بكر: يا نبي الله، لو أن بعضهم طأطأ بصره رأنا، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما ظنك باثنين يا أبا بكر الله ثالثهما». ولما سار خلفهم سراقه بن مالك طمعا فيما فرضته قريش لمن يأتي بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيا أو ميتا. قال سراقه: ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغت الركبتين فخررت عنها، فتكرر ذلك حتى علم أن الله يمنعها منه، فعاد وهو يقول لمن يبحث عنها: قد كفيتكما هذا الطريق لبيحنا في طريق غيره.

تلك لمحات يسيرة من الحماية القدرية لطريق هجرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإعداده للمدينة لتكون دار الهجرة للمسلمين: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَلِيقٌ أَمْرٍ﴾ [يُونُسُ: ٢١]، فمن أطاعه سدد خطاه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۗ وَمِنْ تَرْتِيقِهِ مِمَّنْ حَبِطَ لَمْ يَجْعَسْ يَوْمَهُ﴾ [التَّقْوَى: ٢-٣]، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۗ وَمِنْ تَرْتِيقِهِ مِمَّنْ حَبِطَ لَمْ يَجْعَسْ يَوْمَهُ﴾ [التَّقْوَى: ٤] (١).

والله من وراء القصد



«ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة القرآن»

وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه مر ذات يوم في موضع من نواحي الكوفة، فإذا فتيان فساق قد اجتمعوا يشربون، وفيهم مغنٌ يقال له: زادان يضرب ويغني، وكان له صوت حسن.

فلما سمع ذلك عبد الله قال: ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتاب الله عز وجل، وجعل الرداء على رأسه ومضى، فسمع زادان قوله فقال: من كان هذا؟ قالوا: عبد الله بن مسعود، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: وأي شيء قال؟ قالوا: إنه قال: ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتاب الله تعالى، فقام وضرب بالعود على الأرض فكسره، ثم أسرع فأدركه وجعل المندبل في عنق نفسه، وجعل يبكي بين يدي عبد الله بن مسعود، فاعتنقه عبد الله بن مسعود، وجعل يبكي كل واحد منهما، ثم قال عبد الله: كيف لا أحب من قد أحبه الله عز وجل فتاب إلى الله عز وجل من ذنوبه، ولازم عبد الله بن مسعود حتى تعلم القرآن، وأخذ حفظاً من العلم حتى صار إماماً في العلم، وروى عن عبد الله بن مسعود، وسلمان وغيرهما.



«الصدق منجاة»

يُحكى أن أبا يزيد البسطامي أراد الذهاب إلى بغداد لطلب العلم، فأعطته أمه أربعين دينارًا هي ميراثه من أبيه، وقالت له: ضع يدك في يدي وعاهدني على التزام الصدق فلا تكذب أبدًا، فعاهدها على ذلك، وخرج مع قافلة يريد بغداد، وفي أثناء الطريق، خرج اللصوص ونهبوا كل ما في القافلة، ورأوا البسطامي ربّ الثياب، فقالوا: هل معك شيء؟ فقال: معي أربعون دينارًا، فسخروا منه وحسبوا أنه أبله وتركوه، ورجعوا إلى كهف كان به كبير اللصوص، ينتظر ما يأتون به، فلما رأهم قال: هل أخذتم كل ما في القافلة؟ قالوا: نعم، إلا رجلًا سألناه عما معه، فقال: معي أربعون دينارًا، فتركناه احتقارًا لشأنه، ونظن أن به خيالًا في عقله، فقال: عليّ به، فلما حضر بين يديه، قال: هل معك شيء؟ فقال: نعم، أربعون دينارًا، قال: أين هي؟ فأخرجها وسلمها له، فقال كبير اللصوص: أمجنون أنت يا رجل؟! كيف ترشد عن نقودك وتسلمها باختيارك؟! فقال له: لما أردت الخروج من بلدي، عاهدت أمي على الصدق، فأنا لا أنقض عهد أمي، فقال كبير اللصوص: لا حول ولا قوة إلا بالله، أنت تخاف أن تخون عهد أمك، ونحن لا نخاف أن نخون عهد الله؟! ثم أمر برد جميع ما أخذ من القافلة، وقال: أنا تائب على يدك يا رجل، فقال من معه: أنت كبيرنا في قطع الطريق، واليوم أنت كبيرنا في التوبة، تَبْنَا جميعًا إلى الله، وتابوا وحسنت توبتهم.



«لا يحق المكر السيء إلا بأهله»

حكى أن خدم بعض الملوك التتطوا طفلاً كان مطروحاً بالطريق، فأمر الملك بضمه إلى أهل بيته، وسماه أحمد اليتيم، فلما نشأ ظهرت عليه أمارات النجاية والفطنة، فهذبته، وعلمه، واصطفاه، وقدمه في جميع أعماله وشئون قصره.

وذات يوم، أمره أن يحضر شيئاً من بعض حجراته، وحين ذهب، رأى جارية كانت مقرّبة من الملك في حال مريّة مع خادم من خدم القصر، فتوسلت إليه أن يكتم خبرها، وعرضت نفسها عليه، فقال: معاذ الله أن أخون الملك وقد أحسن إليّ، ثم تركها وانصرف. فأوجست الجارية في نفسها خيفة، وتوهّمت أنه سيفشي سرها، فذهبت إلى الملك باكية شاكية، فسألها، فقالت: إن أحمد اليتيم راودها عن نفسها، وهمّ أن يقهرها على فعل منكر، فغضب أشد غضب، وعزم على قتله.

فقال لكبير خدمه: إذا بعثت إليك أحداً بكذا أو كذا فاقتله، وابعث برأسه إليّ، وبعد قليل أحضر الملك أحمد اليتيم، وقال له: اذهب إلى فلان واطلب منه كذا وكذا، فامثل وذهب، وفيما هو في طريقه لقي بعض الخدم، فحكّموه في أمر اختلفوا فيه، فأخبرهم بما هو مكلف به، فقالوا: نبعث الخادم فلاناً ليحضر ما تطلب، حتى تفصل في أمرنا، فأجابهم إلى ما طلبوا.

وذهب ذلك الخادم، وأخبر رئيس الخدم برسالته فقتله وحزّ رأسه، وجاء بها إلى الملك، فلما أبصره وكشف عنه الغطاء رأى رأساً أخرى، فأمر بإحضار أحمد اليتيم فسأله عن خبره فأخبره بما كان.

فقال له الملك: أتعرف لهذا الخادم ذنباً؟

قال: نعم. إنه فعل كذا وكذا مع فلانة الجارية، وقد سألاني بالله ربي أن أكتم خبرهما، فلما سمع الأمير ذلك سكن ما به، وأمر بقتل الجارية، وأعاد إلى أحمد ثقته به، واطمئنا إليه.

تاب اللصوص

خرجت جماعة من اللصوص ذات ليلة تقطع الطريق على قافلة أتاهم خبرها، فلما جَدُّوا في السعي للقاءها، وتوغل الليل ولم يعد لهم من جهد أو وسيلة لتبينها، فهي لا شك قد حطت رحالها حتى الصباح، حيث لم يستطع اللصوص تبيِّن مكانها، ووجدوا عن بُعد منزلاً مهدماً به أثره من نار، فذهبوا إليه وطرقوا الباب، وقالوا: نحن جماعة من الغزاة المجاهدين في سبيل الله، أظلم علينا الليل، ونريد أن نبيت في ضيافتكم، وأحسن الرجل استقبالهم، وأفرد لهم غرفته، وقام على خدمتهم، وقدم لهم أكل أهل بيته، وكان للرجل ولد مقعد قد شلَّه المرض عن الحركة.

وفي الصباح خرج اللصوص، وقام الرجل وأخذ الرعاء الذي فيه فضل مياههم وباقى اغتسالهم، وقال لزوجته: امسحي لولدنا بهذا الماء أعضاءه، فلعله يشفى ببركة هؤلاء الغزاة المجاهدين في سبيل الله، فهذا الماء وضوؤهم واغتسالهم. وفعلت الأم ذلك.

وفي المساء رجع اللصوص إلى دار الرجل وقد غنموا وسرقوا وانتهبوا ليقضوا ليلتهم في خفية عن أعين قد تكون تترصد لهم، ووجدوا الولد المقعد يمشي سوياً، فقالوا لصاحب الدار وقد تعجبوا واندهشوا: أهذا الولد الذي رأيناه بالأمس وفي الصباح مقعداً؟.

قال الرجل: نعم، فلقد أخذت فضل مائكم وبقية وضوئكم، ومسحته به، فشفاه الله ببركتكم، أستم غزاة مجاهدين من أهل الله؟! !!

فأخذوا في البكاء، والنشيج، وقالوا له: أيها الرجل، اعلم أننا لسنا غزاة، وإنما نحن لصوص قُطِّعَ طريق غير أن الله قد عافى ولدك بحسن نيتك، ولقد تُبِّنا إلى الله توبةً نصوحاً. وخرجوا يوزعون المال على الفقراء والمحتاجين، وتحللوا من الذنب، وتحرروا من الكذب، وتقدموا إلى جيش المسلمين يلتحقون به؛ ليكونوا فعلاً - كما كذبوا أولاً - غزاة مجاهدين في سبيل الله.

سفينتة النجاة

يقول أحدهم: خرجت ذات يوم، وفي إحدى الطرق الفرعية الهادئة قابلني شاب يركب سيارة صغيرة، لم يرني لأنه كان مشغولاً بملاحقة بعض الفتيات في تلك الطريق الخالية من المارة، كنت مسرعاً فتجاوزته، فلما سرت غير بعيد قلت في نفسي: أأعود فأنصح ذلك الشاب؟ أم أمضي وأدعه يفعل ما يشاء؟ وبعد صراع داخلي دام عدة ثوانٍ فقط اخترت الأمر الأول، عدتُ ثانية، فإذا به قد أوقف سيارته وهو ينظر إليهن، ينتظر منهن نظرة أو التفاتة، فدخلن في أحد البيوت.

أوقفت سيارتي بجوار سيارته، ونزلت واتجهتُ إليه، سلمت عليه أولاً، ثم نصحته، فكان مما قلته له: تخيل أن هؤلاء الفتيات أخواتك أو بناتك أو قريباتك، فهل ترضى لأحد من الناس أن يلاحقهن أو يؤذيهن؟! كنت أتحدث إليه وأنا أشعر بشيء من الخوف، فقد كان شاباً ضخماً ممتلئ الجسم، كان يستمع إليّ وهو مطرق الرأس لا يتكلم، وفجأة التفت إليّ فإذا دمعة قد سالت على خده فاستبشرتُ خيراً، وكان ذلك دافعاً لمواصلة النصيحة، لقد زال الخوف مني تماماً فشدتُ عليه في الحديث حتى رأيتُ أنني قد أبلغتُ في النصيحة، ثم ودعته، لكنه استوقفني وطلب مني رقم هاتفي وعنواني وأخبرني أنه يعيش فراغاً نفسياً قاتلاً، فكتبت له ما أريد، وبعد أيام جاءني في البيت، لقد تغير وجهه، وتبدلت ملامحه، فقد أطلق لحيته، وشعّ نور الإيمان في وجهه، جلستُ معه، فجعل يحدثني عن تلك الأيام التي قضاها في التسكّع في الشوارع والطرق، وإيذاء المسلمين والمسلمات، فأخذتُ أسأله، وأخبرته بأن الله سبحانه وتعالى واسع المغفرة، وتلوتُ عليه قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَصَادِقُ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (النور: ٥٣).

فانفجرت أسارير وجهه واستبشر، ثم ودعني وطلب مني أن أزوره، فهو في حاجة إلى من يساعده على السير في الطريق المستقيم، فوعدهته بالزيارة.

مضت الأيام وجعلت أسوِّف في الزيارة، ولما وجدت فرصة ذهبت إليه وطرقت الباب، فإذا بشيخ كبير يفتح الباب وقد ظهرت عليه آثار الحزن والأسى، إنه والده، سألته عن صاحبي، أطرق برأسه إلى الأرض، وصمت برهة ثم قال بصوت خافت: يرحمه الله ويغفر له، لقد مات، ثم استطرده قائلاً: حقاً إن الأعمال بالخواتيم، ثم أخذ يُحدثني عن حاله، وكيف أنه كان مُفرطاً في جنب الله، بعيداً عن طاعة الله، فمنَّ الله عليه بالهداية قبل موته بأيام، لقد تداركه الله برحمته قبل فوات الأوان، فلما فرغ من حديثه، عزيت، ومضيت، وقد عاهدت الله أن أبدل النصيحة لكل مسلم، انتهت.

